الفخر ناظر الجيش المملوكي ودوره في تعطيل نيابة السلطنة والوزارة

٦٥٩ - ٧٣٢هـ/١٢٦١- ١٣٣٢م

بقلم الدكتور

مسعد سيد محمد كتبى

قسم التاريخ والحضارة

كلية اللغة العربية بالمنصورة

جامعة الأزهر

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

أحمدك ربي حمد الشاكرين، وأصلي وأسلم على المبعوث رحمة للعالمين، سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، ومن اهتدى بهداهم إلى يوم الدين، ... وبعد.

يحفل التاريخ المملوكي بسير غير واحد من الرجال، الذين كان لهم جهد بارز في تسيير دفة الأحداث، واضطلعوا فيها بأدوار فريدة، ميزتهم عن سابقيهم ولاحقيهم، على الرغم من أن نشأتهم لم تكن تشي بشيء من هذا؛ لكونهم من أرباب الوظائف الديوانية، ومن هؤلاء صاحب شخصية هذا البحث، الذي تميز عن مناظريه بأمرين، الأول: أنه برع في القيام بشؤون عمله ناظر للجيش، بحيث لم ينازعه فيه عند سلطانه الناصر محمد بن قلاوون أحد طيلة ثنتين وعشرين سنة، الثاني: أنه بالرغم من كونه ديوانياً، إلا إنه لعب دوراً سياسياً بارزاً، فاق فيه غيره من الأمراء والمباشرين، ذلك الذي تمثل في دهائه للإطاحة برجلين من كبار الأمراء من منصبيهما، وهما: نائب السلطنة الأمير أرغون الناصري والوزير مغلطاي الجمالي، ليس هذا فحسب، بل وتعطيل منصبيهما ما بقي السلطان حياً، وهذا ما سيعرض له هذا البحث المعنون بـ " **الفخر ناظر الجيش المملوكي ودوره في تعطيل نيابة السلطنة**

والوزارة ٦٥٩ – ٧٣٢ هـ/١٢٦١ – ١٣٣٢م".

وقد جاء هذا البحث فى ثلاثة مباحث مسبوقة بمقدمة ومشفوعة بخاتمة وثبت للمصادر والمراجع ثم فهرست للموضوعات، على النحو التالي:

المقدمة: بينت فيها أهمية الموضوع، وأسباب اختياره، وخطة البحث.

وجاء المبحث الأول بعنوان" **ناظر الجيش ومهامه** " حيث عرفت فيه بناظر الجيش ومهامه وصلاحياته، ومكانته في سلك الوظائف الديوانية، ثم الإشارة إلى ديوانه المنوط به القيام على شؤونه.

وخصص المبحث الثاني للحديث عن " **حياة الفخر ومكانته بين معاصريه** "، مفتتحاً إياه بالحديث عن نشأة الرجل وإسلامه، ثم تدرجه في الوظائف الديوانية حتى نال نظر الجيش، وعلاقاته المتميزة بالسلطان الناصر محمد بن قلاوون، والدلائل على هذه العلاقة والمكانة التي حازها، ثم الإشارة إلى أهم الأعمال التي اضطلع بها الفخر كالروك الناصري، مع الإشارة إلى صفاته وعلاقته بمعاصريه ومكانته بينهم، وأخيراً جهوده الوقفية التي تنوعت في ربوع البلاد.

وعرض المبحث الثالث لـ " **دور الفخر في عزل نائب السلطنة أرغون الناصري والوزير مغلطاي الجمالي وتعطيل**

منصبيهما "، مستهلاً إياه بمكانة نائب السلطنة في الدولة المملوكية، ثم علاقة الفخر بالنائب أرغون الناصري، وأسباب العداء بينهما، ذلك الذي تمخض عن نجاح الفخر في الإيقاع بغريمه عند السلطان الناصر محمد بن قلاوون، حتى عزله من نيابة السلطنة وعطلها، ثم الانتقال للحديث عن مكانة الوزير مغلطاي الجمالي، و دهاء الفخر لنزع سلطاته وصلاحياته، ثم مكره به عند السلطان حتى نحاه عن الوزارة وعطلها، وانفراد الفخر بمهامه، كما انفرد بمهام نائب السلطنة، وصار هو المعول عليه في الدولة المملوكية بعد السلطان.

وجاءت الخاتمة للتنويه بأهم النتائج المستقاة من دراسة هذا الموضوع .

وبعد فهذه محاولة للاجتهاد، وللكشف عن دور الفخر في تعطيل نيابة السلطنة والوزارة في آن، فإن كنت أصبت فيها فهذا فضل الله يؤتيه من يشاء، وإن كانت الأخرى فحسبي أني مجتهدٌ، وفى درب البحثِ ملتمسٌ، وللحقيقة باغٍ، والله من وراء القصد وهو يهدي السبيل، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

الباحث /مسعد سيد محمد كتبى

المبحث الأول

ناظر الجيش ومهامه

يحتل ناظر[١] الجيش المملوكي المرتبة الرابعة في سلك الوظائف الديوانية[٢] ، بعد الوزارة [٣]

---

(١) الناظر: هو من ينظر في ضبط الأموال، وتُرفع إليه حساباتها، لينظر فيها ويتأملها، فيمضي ما يوافق عمله ويرد ما يخالفه، وهو المسئول الأول عن كل ما يجري في الديوان، ويرجع إليه جميع الموظفين، ولا بد من توقيعه على كل ما يصدر من الديوان من سجلات، وهو المشرف على الوارد والمنصرف في الديوان، ولديه جميع البيانات الخاصة بالمتحصلات والمصروفات، ثم يختلف النظر المقصود باختلاف ما يضاف كنظر الجيش وغيره. القلقشندي (أحمد بن علي ت ٨٢١ /١٤١٨م): صبح الأعشى فى صناعة الإنشا ٤٣٧/٥، شرحه وعلق عليه وقابل نصوصه /محمد حسين شمس الدين، دار الفكر، بيروت، ط١، ١٤٠٧هـ /١٩٨٧م، محمد قنديل البقلى: التعريف بمصطلحات صبح الأعشى ص ٣٤١، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، د ط، ١٩٨٣م.

(٢) الوظائف الديوانية: عددها خمس وعشرون وظيفة أهمها: الوزارة، وكتابة السر، ونظر الخاص، ونظر الجيش...، القلقشندي : صبح الأعشى ٤ /٢٨ – ٣٥.

(٣) الوزارة: من أجل الوظائف وأرفعها رتبة في الحقيقة، لو لم تخرج عن موضوعها، ويعدل بها عن قاعدتها، وصاحبها ثاني رجل في الدولة بعد السلطان لو أُنصف وعُرف حقه، ولكنها تأخرت عن مكانتها تلك بعد استحداث منصب نيابة السلطنة، حتى صار الوزير كناظر المال لا يتحدث في غيره، ولا يُمنح أي سلطات لا في ولاية ولا عزل، وألغاها الناصرمحمد بن قلاوون، وعادت بعد وفاته، وظلت تالية لنيابة السلطنة. القلقشندي: صبح الأعشى ٢٨/٤، ٢٩.

وكتابة السر[١] ونظر الخاص[٢]، ويعد نظر الجيش من أهم الوظائف الديوانية؛ لما لصاحبها من مهام وخصائص وصلاحيات في الشؤون المالية والإقطاعات[٣] الخاصة بجنود الجيش وأمرائه،

(١) كتابة السر: مهام صاحبها الإشراف على شؤون البريد السلطاني ، و قراءة الكتب الواردة إلى السلطان، وكتابة أجوبتها، وأخذ توقيع السلطان عليها، وإرسالها إلى أصحابها، ويشارك كاتب السر الوزير في بعض الأمور، كما يشارك الدوادار في أكثر الأمور السلطانية.القلقشندى: صبح الأعشى ٣٠/٤.

(٢) نظر الخاص: هذا الديوان أحدثه الناصر محمد بن قلاوون سنة ٧١٠ هـ/١٣١٠ م، ومهام صاحبه النظر فى خاصة أموال السلطان والتحدث فى الجهات والبلدان التي يحصل منها، ويحمل جميعه إلى خزانة الخاص، وصار ناظر الخاص كالوزير لقربه من السلطان ولمنحه سلطات الوزارة حين تعطيلها.القلقشندى: صبح الأعشى ٣٠/٤، البقلى: التعريف ص ١٤٥، ١٤٦.

(٣) الإقطاعات: جمع إقطاع بالكسر، وهو ما يقطعه السلطان لأهل الجيش من الأمراء والجنود، مقابل ما هو مقرر لهم من أرزاق تصرف لهم لحمايتهم للبلاد، ويكون من أرض أو غيرها من أي نوع من أنواع المال الثابت أو المنقول، وهو تمليك للمنفعة لا للرقبة، وهو أمر شخصي بحت، لا دخل لحقوق الملكية أو لأحكام الوراثة فيه، فكان المُقطع يحل في الإقطاع محل السلطان؛ ليتمتع بغلاته وإيراداته فحسب، ثم يؤول جميعه إلى السلطان بمجرد انتهاء مدة الإقطاع المتفق عليها، ويمنح السلطان الإقطاعات عن طريق ديوان الجيش للأمير أو الجندي بما يعادل رتبته الحربية، وهو مصدر دخل سنوي له، ويختلف مقدار الإقطاع بحسب مكانة الأمير أو الجندي، والإقطاع يتحصل عليه من غلة الأراضي الزراعية نقداً أو عيناً. البقلي: التعريف ص٣٧، السيد الباز العريني: المماليك ص ١٦٨، ١٧٠، ١٧١، ١٨٥، ١٨٦، ١٩٧، ١٩٨، دار النهضة العربية، بيروت، دط، ١٩٧٩م، محمد عمارة: قاموس المصطلحات الاقتصادية في الحضارة الإسلامية ص ٦١، دار الشروق، بيروت، ط ١، ١٤١٣ هـ/١٩٩٣ م.

ويعين ناظر الجيش من قِبَل السلطان، ويختار من بين خاصته[١]، ويُلقب بناظر الجيش أو الجيوش، ويُكاتب في السجلات الرسمية بمدبر الجيوش وعون العساكر[٢].

ومهام ناظر الجيش النظر في أمر الجيوش وأموالها وضبطها، وكذلك في شأن الإقطاعات العسكرية بمصر وبلاد الشام ما جل منها أو قل، والكتابة إلى معاونيه في الديوان بالكشف عنها ورفع أمورها إليه، ومشاورة السلطان بشأنها، وأخذ موافقته على الأمور التي تتعلق بالجند وتجهيزهم وتجريدهم وإقطاعاتهم؛ لأن استقرار السلطنة ونجاحها مرتبط ارتباطاً وثيقاً بضبط أمور الجيش، وحفظ أحوال جنوده، وترتيب منازلهم في الرواتب والإقطاعات على قدر طبقاتهم المتفاوتة ودرجاتهم المختلفة، فجميع هذه الأمور منوطة بناظر الجيش، الذي مدار جميع أحوال المملكة مرتبط بما يصدر منه من قرارات تتعلق بالجنود

---

(١) القلقشندي: صبح الأعشى ٤ /٢٨ – ٣٥، خليل بن شاهين (غرس الدين خليل ت ٨٩٣هـ /١٤٨٨م): زبدة كشف الممالك وبيان الطرق والمسالك ص ١٠٢، ١٠٣، اعتنى بتصحيحه بولس راويس، باريس، دط، ١٨٩٣ م، السحماوي (شمس الدين محمد ت ٨٦٨هـ /١٤٦٤م): الثغر الباسم في صناعة الكاتب والكاتم، المعروف باسم المقصد الرفيع المنشا الهادي لديوان الإنشاء للخالدي ٤٢٦/١، دراسة وتحقيق د/أشرف محمد أنس، مراجعة د/حسين نصار، مطبعة دار الكتب والوثائق القومية، د ط، ١٤٣٠هـ /٢٠٠٩م، البقلي: التعريف ص ٣٤١.

(٢) القلقشندي: صبح الأعشى ٦ /٦٢، ٧٠، ٧١.

وإقطاعاتهم، أو ما يرد إليه من السلطان من مراسيم وتواقيع [١] خاصة بشؤون عمله [٢].

واشترط في ناظر الجيش أن يكون من أعيان الكتاب، الذين مهروا وأجادوا في القيام بما أُسند إليهم من أعمال ديوانية سالفة، عدلاً فيما أوتمن عليه، حسن الضبط لشؤون ديوانه، وما تحت يديه من أموال وإقطاعات، عالماً بأمور الجيش وترتيبه ومراتب الأمراء والجند المستخدمين، وترتيب مقامهم ودرجاتهم، خبيراً بتحرير الكشوف والمحاسبات، واستيضاح أمر من يموت من أرباب الإقطاعات لترشيح من يخلفه[٣].

---

(١) التواقيع: المقصود بها التوقيع على حواشي القصص وظهورها، كالتوقيع بخط الخليفة أو السلطان أو النائب، أو من جرى مجراهم بما يعتمد في القضية التي رفعت القصة بسببها. البقلي: التعريف ص٧٨.

(٢) القلقشندي: صبح الأعشى ٤ /٣١، ٣١٤/١١، ابن شاهين: زبدة كشف الممالك ص ١٠٢، ١٠٣، السحماوي: الثغر الباسم ٤٢٦/١.

(٣) المقريزي (أحمد بن علي بن عبد القادر العبيدي ت ٨٤٥هـ/١٤٤١م) المواعظ والأعتبار بذكر الخطط والآثار ٣٣٨/٣، وضع حواشيه /خليل المنصور، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤١٨هـ /١٩٩٨م، السيوطي (جلال الدين عبد الرحمن ت ٩١١هـ /١٥٠٥م): حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة ١٣٢/٢، تحقيق /محمد أبو الفضل إبراهيم، دار إحياء الكتب العربية، ط١، ١٣٨٧هـ /١٩٦٧م، أحمد عبد الرازق أحمد: البذل والبرطلة زمن سلاطين المماليك دراسة عن الرشوة ص ٨٩، الهيئة المصرية العامة عن الكتاب، القاهرة، دط، ١٩٧٩م.

ولناظر الجيش أعوان وأتباع بديوانه من المستوفين [١]، الذين يعتمد عليهم في تحرير كليات المملكة بصفة عامة، ودقائق جزئياتها بصفة خاصة، فيما يتعلق بشؤون الجند والأمراء وإقطاعاتهم، وكان في ديوان الجيش إدارتان أولاهما: يتولاها صاحب ديوان الجيش ويتبعه كاتب وشهود، وهو الذي يختص بأفراد الجيش من غير المماليك، كالعربان وغيرهم، وثانيهما: صاحب ديوان المماليك وله كاتب وشهود، وهو الذي يختص بالجنود من المماليك وأمرائهم، وحظى صاحب ديوان الجيش بمكانة كبيرة في ديوانه؛ إذ هو الرجل الثاني بعد الناظر، وله كافة صلاحياته في النظر والتحدث، وينوب عن ناظر الجيش عند تعذر حضوره في ديوانه أو أمام السلطان، الذي يختص بتعيينهم[٢].

وكان ناظر الجيش– لمكانته – يجلس أمام السلطان في

(١) المستوفي: من كتاب الأموال بالدواوين، وعمله ضبط الديوان التابع له، والتنبيه على ما فيه مصلحته من استخراج الأموال، ونحو ذلك، وسمي لأهميته قطب الديوان؛ لأنه كان يقوم بضبط سير الأعمال اليومية بالديوان، ومراقبة الموظفين، هذا فضلا عن قيامه بتبليغ متولي الديوان بما يجب تحصيله من الموارد المالية في مواعيدها المحددة. القلقشندي: صبح الأعشى ٤٣٧/٥، ٤٣٨، البقلي: التعريف ص٣١٠.

(٢) القلقشندي: صبح الأعشى ٤ /٣١، ٣٤، المقريزي: المواعظ ٣ /٣٩٥، السحماوي: الثغر الباسم ٤٢٦/١ ، عبد المنعم ماجد: نظم دولة سلاطين المماليك ورسومهم في مصر دراسة شاملة للنظم السياسية ١٣٩/١، مكتبة الأنجلو المصرية، ط٢، ١٩٧٩م.

الحلقة التي يتوسطها، إذا جلس بدار العدل[١] للنظر في المظالم، وعن يمين السلطان القضاة وعن يساره كاتب السر، ثم يلي هؤلاء بقية أرباب الوظائف الديوانية الذين يكملون الحلقة، فإن احتاج السلطان في مجلسه هذا إلى مراجعة شيء مما يُعرض عليه من المظالم التي تتعلق بالإقطاعات وأمرائها قرأه ناظر الجيش بنفسه، وإن تطلب الأمر مراجعة في شأن العسكر والجنود تحدث السلطان مع الحاجب[٢] وكاتب الجيش [٣].

وأشرفت الدولة المملوكية مالياً على شؤون الجيش من خلال هذا الديوان الذي أُطلق عليه في العصر المملوكي ديوان الجيش

(١) دار العدل: مكانها بالقلعة، وهي المكان الذي كان يحضر فيه رئيس ديوان الإنشاء ومعه كتاب الدست – الموقعون – مع السلطان أو من ينوب عنه جلسات النظر في المظالم؛ لقراءة القصص على السلطان – المظالم التي يحملها الدوادار إلى المجلس – وإذا لم يتخذ قراراً في هذه المظالم، فإنها تحمل إلى ديوان الإنشاء لبحثها، ومنه ترسل إلى الجهات المختصة للتنفيذ. البقلي: التعريف ص١٣٠.

(٢) الحاجب: مهام صاحبها الحكم بين الأمراء والجند، تارة بنفسه وتارة بمراجعة النائب، وهو الذى يتولى تقديم من يرد إلى السلطان، وعرض الجند وما شابه ذلك. القلقشندي: صبح الأعشى ٤ /٢٠، البقلي التعريف ص٩٧.

(٣) القلقشندي: صبح الأعشى ٤ /٤٥، ٤٦، المقريزي: المواعظ ٣ /٣٦٥.

أو ديوان الإقطاع، و مقره في قلعة الجبل(١)، ويعد هذا الديوان من أرفع دواوين الأموال في السلطنة وأهمها وأعلاها وأضبطها وأكثرها نفعاً، وأوسعها جمعاً وحصراً في الدولة المملوكية، تلك التي كان عدد جنود جيوشها بالآلاف، وفي حاجة ماسة إلى تسجيل أسمائهم، وترتيب أحوالهم، وتنظيم شؤونهم، فهذا الديوان تثبت فيه سجلات أرباب الإقطاعات من الأمراء والجنود، وكيفية انتقال الإقطاع إليهم، ومحتوى كل إقطاع وما يضمه من البلدان أو الضياع، ومن هذا الديوان تخرج التواقيع والمراسيم السلطانية، والاستحقاقات المالية و العينية للجنود(٢).

وتدرج الفخر صاحب شخصية هذا البحث في سلك وظائف

(١) قلعة الجبل: تقع بين ظاهر القاهرة وجبل المقطم والفسطاط، على قمة جبل المقطم بناها الطواشي بهاء الدين قراقوش؛ لتكون مقراً للملك الناصر صلاح الدين الأيوبي الذي أرادها أن تكون حصناً منيعاً له؛ يعتصم فيه من أعدائه شيعة الفاطميين، ولكن القدر لم يمهله ليسكن فيها، فكان أول من استقر بها الملك الكامل محمد بن العادل، وصارت من يومئذ مستقراً لحكام مصر من الأيوبيين ثم المماليك. القلقشندي: صبح الأعشى ٣/٤٢١، ٤٢٢، المقريزي: المواعظ ٣/٣٥١، ٣٥٢.

(٢) القلقشندي: صبح الأعشى ٤ /٣١، المقريزي: المواعظ ٣ /٣٧٥، ٣٧٦، ٣٣٨، ابن شاهين: زبدة كشف الممالك ص ١٠٢، ١٠٣. العريني: المماليك ص ١٨٦، ١٨٧.

هذا الديوان[١]، وكان له دور مشهود في القيام بمهام عمله ناظراً للجيش، ذلك الذي راق لسلطانه الناصر محمد[٢]بن قلاوون، فأقره فيه ثنتين وعشرين سنة، كما كانت للفخر مكانة مرموقه عند سلطانه، وعلاقات متباينة بمعاصريه، ومشاركات في الجوانب الاجتماعية، وهذا ما سيعرض له الباحث في المبحث الثاني:

(١) ابن أيبك (أبو بكر بن عبد الله الدواداري ت بعد ٧٣٦هـ /١٣٣٥م): كنز الدرر وجامع الغرر، الدر الفاخر في سيرة الملك الناصر ٣٦٢/٩، تحقيق /هانس روبرت رويمر، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، د ط ت .

(٢) ناصر الدين محمد بن قلاوون، ولد سنة ٦٨٤هـ/١٢٨٥م، وتولى السلطنة بعد مقتل أخيه الأشرف خليل سنة ٦٩٣هـ /١٢٩٤م، وخلع منها بعد سنة واحدة، ثم عاد للسلطنة مرة ثانية سنة ٦٩٨هـ/١٢٩٩م، وظل بها حتى ضيق عليه الأمر الأميران بيبرس الجاشنكير وسلار، فتوجه إلى الكرك واعتزل السلطنة سنة ٧٠٨ هـ /١٣٠٨م، فاضطربت أحوال مصر، وتمكن من العودة للسلطنة للمرة الثالثة سنة ٧٠٩ هـ/١٣٠٩م وانفرد بها طيلة ثنتين وثلاثين سنة، توفى سنة ٧٤١ هـ /١٣٤٠م.المقريزي: السلوك لمعرفة دول الملوك ٣٠١/٣، ٣٠٢، تحقيق /محمد عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤١٨هـ /١٩٩٧م .

المبحث الثاني

حياة الفخر ومكانته بين معاصريه

وصاحب شخصية هذا البحث هو محمد بن فضل الله بن خروف القبطي المصري، ولد سنة ٦٥٩هـ/١٢٦١م، وعمل كأسلافه بالكتابة في دواوين الدولة، وظل على نصرانيته حتى مطلع شبابه، وكان شديد التعصب والتأله، متجنباً لأم الخبائث، إذا اجتمع عليها قرناؤه فارقهم إلى صلاته، فإن افتقدوه لطول غيابه عنهم، وجدوه متبتلاً إلى الله منصرفاً إليه بكل حواسه، ولما ألزمه أولو الأمر في ديوانه بالإسلام امتنع وهمَّ بقتل نفسه، وغاب عن الأنظار أياماً، ثم هداه الله وشرح صدره، فأسلم وتسمى محمداً، وتلقب بفخر الدين، وكان للإسلام عليه أثر كبير، فلم يقرب من يومئذ نصرانياً، ولا اجتمع بأحدهم، ولا آواه في بيته، واجتهد لتعويض ما فاته من شعائر الإسلام وفروضه[١].

(١) الصفدي (خليل بن أيبك ت ٧٦٤هـ /١٣٦٢م): الوافي بالوفيات ٤ /٢٣٨ ، ٢٣٩ ، تحقيق واعتناء /أحمد الأرناؤط وآخر، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، ط١، ١٤٢٠هـ /٢٠٠٠م ، المقريزي: كتاب المقفى الكبير ٥١٦/٦، تحقيق /محمد اليعلاوي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط١، ١٤١١هـ /١٩٩١م، ابن حجر (أبو الفضل أحمد بن علي ت ٨٥٢هـ /١٤٤٨م) الدرر الكامنة فى أعيان المائة الثامنة ٥ /٣٩٧ ، ٣٩٨، تحقيق /محمد عبد المعيد خان، مطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية، حيدر آباد، الهند، ط٢، ١٩٧٢م.

وتدرج الفخر في الأعمال الديوانية حتى عمل كاتباً في ديوان الجيش سنة ٦٩٥هـ/١٢٩٦ م، واشتهر بكاتب المماليك السلطانية، ثم ترقى من وظيفته تلك حتى نال نظر الجيش سنة ٧٠٩ هـ/١٣٠٩م بعد وفاة بهاء الدين[١]الحلبي، وخلف الفخر في كتابة المماليك ولده عبدالله [٢]، وظل فخر الدين منفرداً بنظر الجيش من هذا التاريخ وحتى وفاته سنة ٧٣٢ هـ/١٣٣٢م، ولم يفارق منصبه سوى شهورٍ معدودةٍ، لغضب السلطان الناصر محمد عليه، فكانت مدة عمل الفخر في هاتين الوظيفتين سبعاً وثلاثين سنة [٣]، وإن دل هذا على شيء فإنه يدل على جدارته بمنصبه، وحسن قيامه بمهام عمله، بصورة راقت لسلطانه الناصر محمد، فأقره في وظيفته كل هذه المدة.

وظهرت مواهب الفخر الديوانية منذ أن تقلده لنظر الجيش،

---

(١) بهاء الدين الحلبي: عبدالله بن أحمد بن علي بن المظفر، كان من أعيان المصريين، توفي سنة ٧٠٩ هـ/١٣٠٩م، ودفن في القرافة. الصفدي: أعيان العصر وأعوان النصر ٢ /٦٥٧، تحقيق الدكتور/على أبو زيد، والدكتور وآخرون، دار الفكر المعاصر، بيروت، ط ١، ١٤١٨ هـ/١٩٩٨ م.

(٢) عبدالله بن محمد بن الفخر، نشأ في حياة والده، وتأهل للمناصب فشارك والده العمل في ديوان الجيش، توفي سنة ٧١٤ هـ/١٣١٤م ، الصفدي: أعيان العصر ٢ /٧٢٨.

(٣) الصفدي: الوافي ٤ /٢٣٩ ، ابن أيبك: كنز الدرر ٩ /٤١، ٢٠٥، ٣٦٢، المقريزي: المقفى ٥١٧/٦.

فنال الحظوة عند السلطان الناصر محمد بن قلاوون، وعظم شأنه وعلت كلمته على أقرانه من الكتاب، وصار هو المعول عليه في شؤون نظر الجيش، الأمر الذي أثار حفيظة بعض معاصريه من الأمراء، فسعوا للإيقاع به عند السلطان، وكان على رأس هؤلاء الأمير فخر الدين إياز[١] شاد الدواوين[٢]، الذي نقم على الفخر مكانته وتربص به الدوائر، مما دفع الفخر للتصدى له وإهانته ذات مرة ، فمكر إياز لنيل وتره، واتهم الفخر أمام نظرائه من الكتاب بكثرة أمواله وثرواته في مصر وبلاد الشام، تلك التي استولى عليها من دون وجه حق، بحكم كونه ناظراً للجيش، ولم يكتف إياز بهذا الاتهام المرسل فحسب، بل سعى للوصول إلى الناصر محمد، وأغراه بكثرة ثروات غريمه التي استلبها، وتعهد للسلطان بمصادرة مليون درهم من الفخر لو مكنه منه، الأمر الذي راق للناصر محمد، فأذن له ومكنَّه من النيل من غريمه، للوفاء بما وعد به من

(١) فخر الدين إياز: كان مملوكاً للأمير شمس الدين سنقر الأعسر وله نُسب فقيل: الشمسي، تولى نيابة قلعة الروم، ثم نقل منها إلى حماة، ثم تولى شد الدواوين بدمشق سنة ٧١٠ هـ/١٣١٠م، وعاد إلى القاهرة سنة ٧١١ هـ/١٣١١م فتولى شد الدواوين بها، ثم نقل إلى بلاد الشام، فاستقر فيها حتى وافته المنية في طرابلس سنة ٧٢٢ هـ/١٣٢٢م. الصفدي: أعيان العصر ١ /٦٤١، ٦٤٢.

(٢) شاد الدواوين: الشد كلمة ترادف تفتيش، ويسمى متولي هذه الوظيفة الشادّ، والمراد به التفتيش على الدواوين وضبط حساباتها، وصاحب هذه الوظيفة يكون مرافقا للوزير، متحدثاً في استخلاص الأموال. القلقشندي: صبح الأعشى ٢٣/٤، البقلي: التعريف ص ١٩٣.

الأموال دون النظر لمكانة الفخر أو لوظيفته[١].

شرع الأمير إياز في تنفيذ مخططه، وبدأ في استفزاز الفخر والنيل منه في القلعة، متهماً إياه بالاستيلاء على أراضي الخاص، واختلاس أموال السلطان، الأمر الذي أزعج الفخر، فحاول الدفاع عن نفسه أمام هذه الاتهامات، خاصة مع وجود بعض الأمراء، بيد أن الأمير إياز أسرع بالانصراف إلى مقر السلطان وهو يردد هذه الاتهامات، ولم يسع الفخر إلا ملاحقته حتى وقفا بين يدي السلطان، وواصل إياز هجومه على غريمه ومحاققته بصورة لم يستطع الفخر حيالها رداً، فتظاهر الناصر بالغضب الشديد، وأمر على الفور بالقبض علي الفخر، وعزله من نظر الجيش هو وولده عبدالله، وذلك في ربيع الأول سنة ٧١٢هـ/يولية ١٣١٢م، كما أمر باستدعاء ابن شيخ السلامية[٢] ناظر الجيش الشامي ليخلفه في وظيفته، وأذن السلطان للأمير إياز بالتحفظ على الفخر في بيته، ومصادرة كافة ثرواته في مصر وبلاد الشام، وتعرض الفخر في

(١) النويري (شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب ت ٧٣٣ هـ /١٣٣٢م): نهاية الأرب في فنون الأدب ٣٢ /١٩٧، الهيئة دار الكتب والوثائق المصرية، القاهرة، ط ١، ١٤٢٣هـ ، ابن أيبك: كنز الدرر ٩ /٢٣٨ ، المقريزي: السلوك ٢ /٤٧٩ ، ٤٨٠.

(٢) ابن شيخ السلامية: موسى بن أحمد بن الحسين بن بدران قطب الدين، ولد سنة ٦٦١ هـ/١٢٦٣م، وعمل بالكتابة في الدواوين حتى مهر فيها، وتولى نظر الجيش في بلاد الشام ثم في مصر، ثم عاد إلى بلاد الشام، وظل ناظراً للجيش، حتى توفي سنة ٧٣٢ هـ/١٣٣٢م.الصفدي: أعيان العصر ٥ /٤٦٩ – ٤٧١، ابن حجر: الدرر ٦ /١٣٦، ١٣٧.

هذه المحنة للإهانة البالغة من جانب غريمه إياز[١].

إذن نجحت خطة هذا الأمير في الإيقاع بالفخر، الذي لم يستكن لما حل به، حيث أسرع للاستنجاد بمجموعة من كبار الأمراء[٢] ممن تربطه بهم علاقات طيبة، فالتمسوا من الناصر محمد نقل الفخر من بيت الأمير إياز إلى مقر نظيره بيبرس[٣] الأحمدي الجاندار[٤]، وتعهدوا بأن يقر الفخر بكل أمواله ويسلمها

---

(١) ابن أيبك: كنز الدرر ٩ /٢٣٨ ، المقريزي: السلوك ٢ /٤٧٩ ، ٤٨٠، المقفى ٦ /٥١٧، ٥١٨.

(٢) كالأمير طغاي والأمير كستاي والأمير بيبرس الأحمدي الجاندار. المقريزي: السلوك ٢ /٤٨٠.

(٣) بيبرس بن عبد الله الأحمدي المنصوري، كان جاركسياً، جلبه السلطان المنصور قلاوون، وبعد وفاته جعله الناصر محمد جانداراً، ثم أمير سلاح، وترقى في الوظائف فتولى نيابة صفد، وطرابلس، وشارك في صراعات الأمراء بعد وفاة الناصر محمد، وتولى نيابة دمشق ثم صفد، ثم توفى سنة ٧٤٦ هـ /١٣٤٥م. المقريزي: السلوك ٢٢/٤، ابن تغري بردي (جمال الدين أبو المحاسن يوسف ت٧٧٤هـ /١٣٧٢م): المنهل الصافي والمستوفي بعد الوافي /٤٧٩ – ٤٨١، حققه د/محمد محمد أمين وآخرون، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٨٤– ١٩٩٠م.

(٤) الجاندار: مصطلح فارسي يتألف من كلمتين، الأولى جان ومعناها: السلاح، والثانية دار: بمعنى ممسك، أي ممسك السلاح، وكان يطلق على فئة من المماليك تتبع الأمير أو السلطان.محمد أحمد دهمان: معجم الألفاظ التاريخية في العصر المملوكي ص٥١، دار الفكر، دمشق وبيروت، ط١، ١٤١٠هـ /١٩٩٠م.

للسلطان، فاستجاب لهم الناصر محمد، وحاز على نصف مليون درهم من أموال الفخر، ولما نال السلطان مراده أمر باطلاق سراحه في منتصف الشهر نفسه ربيع الأول سنة ٧١٢ هـ/يولية ١٣١٢م[١].

وقد تساءل أحد الباحثين[٢]عن السبب الحقيقي لنكبة السلطان الناصر محمد للفخر ناظر الجيش، بالرغم من كونه واحداً من المقربين إليه؟، وهل كان العزل لمصادرة أمواله ؟، أم لشيء آخر؟، ولم يجد الباحث تفسيراً مقبولاً لذلك سوى أن الفخر قد وقع ضحية لإحدى الدسائس من داخل القلعة تلك التي أسفرت عن الإطاحة به، وعزله من منصبه ومصادرة ثرواته، بيد أن الكاتب ومن خلال عرضه للوقائع، يميل إلى أن السبب الحقيقي لنكبة الفخر هو الخلاف الشخصي بينه وبين الأمير إياز، ورغبة هذا الأخير في نيل وتره من الفخر الذي بادر بإهانته، ولما اتضح

(١) المقريزي: السلوك ٢ /٤٨٠، المقفى ٦ /٥١٧، ٥١٨.

(٢) حياة ناصر حجي: السلطة والمجتمع في سلطنة المماليك، فترة حكم السلاطين البحرية من سنة ٦٦١ – ٧٨٤هـ/١٢٦٢ – ١٣٨٢م، دراسة تاريخية وثائقية في وقائع الممارسات المختلفة السلطانية والأميرية، ص ٣١ – ٣٣ .جامعة الكويت، ط ١، ١٩٩٧م.

للسلطان الناصر محمد براءة الفخر مما نُسب إليه من إتهامات، بادر بإطلاق سراحه، ليس هذا فحسب، بل وشرع في رد الأموال المصادرة إليه، وإعادته إلى عمله.

فقد تولى ابن شيخ السلامية نظر الجيش المصري خلفاً للفخر، بيد أن خبرته في نظارة الجيش الشامي لم تسعفه للنهوض بالعمل في مصر كما كان يقوم به سابقه، حيث تصحفت عليه أسماء البلاد المصرية، فعجز عن التمييز بينها، كما وضح للعيان ارتباكه في مباشرة مهام عمله، بحيث إن السلطان كان إذا سأله عن إقطاع بلد، لا يستطيع تقديم جواب شافٍ سريع، الأمر الذي جعل الناصر محمد يدرك مجانبته للصواب في عزل الفخر، وتولية ابن شيخ السلامية مكانه، بيد أنه لم يستطع المجاهرة بذلك، حتى لا يكون إقراراً بمكانة الفخر على مناظريه [١].

(١) النويري: نهاية الأرب ٣٢ /١٩٧، المقريزي: السلوك ٢ /٤٨٠.

وكانت القشة التي قصمت ظهر البعير، وجعلت الناصر محمد يقر بخطئه في عزل الفخر من نظر الجيش المصري، ويبادر إلى إعادته سريعاً، ما حدث حينما قام السلطان ومعه كبار رجال الدولة بعرض(١) لقوات الجيش المملوكي، لتقدير إقطاعات ورواتب أفراده وذلك في ربيع الآخر سنة٧١٢ هـ/أغسطس١٣١٢م، حيث عاين السلطان ومرافقوه من كبار الأمراء أن ابن شيخ السلامية ورجاله " **قليلو الخبرة بالجيوش، ولا يعرفون الجندي الجيد من غيره، ولا القديم... من المستجد** "، مما جعل السلطان يوقن وهو في مجلسه هذا بضحالة علم ابن شيخ السلامية في القيام بمهام عمله، وأن نظر الجيش لا ينهض به سوى أمثال الفخر (٢).

لذلك أمر السلطان الناصر محمد على الفور بإحضار

(١) كان لتوزيع الإقطاعات في الجيش المملوكي رسوم معينة، فيجلس السلطان في أيام محددة ومعه الأمراء وناظر الجيش وأعوانه، ويعرض كاتب الجيش جند كل أمير على السلطان، ويعرفه الناظر المستحق للإقطاع من غيره، فمن أجاز السلطان عرضه أثبت كاتب الجيش اسمه وصفاته، وما يستحقه هو وأميره من الإقطاع، ثم يقرأ الناظر ما يتعلق بالإقطاعات على المسامع، وتكون إقطاعات الأمراء على قدر درجاتهم فمنهم من يحوز بلداً إلى عشرة، وأما الجنود فمن بلد لأحدهم إلى مشاركة غير واحد فيها. العريني: المماليك ص ١٨٧، ١٨٨، ماجد: نظم دولة المماليك ١ /١٤٠، ١٤١.

(٢) ابن أيبك: كنز الدرر ٩ /٢٣٩.

الفخر إلى العرض، وعفى عنه وخلع [١] عليه، وأخبره بما وقعوا فيه من اضطراب في عرض الجيش؛ لعدم خبرة ابن شيخ السلامية بشؤون عمله، فشرع الفخر في عرض الجنود بخبرته ومهارته ومعرفته، وعرّف السلطان الدخيل في الجندية من الأصيل المستحق للعطاء، فأبطل الناصر محمد كل ما قام به ابن شيخ السلامية، وأمضى ما قاله الفخر، وقطع عطاء غير المستحقين، وأنعم بالعطاء على جند آخرين أقرهم الفخر[٢].

لا مراء في أن تلك الواقعة كانت كفيلة برد اعتبار الفخر، والإقرار بأنه أكفأ من يتولي نظر الجيش، وهو ما دفع السلطان إلى التصريح برضاه عنه والخلع عليه، ثم الأمر بإعادة الأموال المصادرة منه في واقعة الأمير إياز إليه، بيد أن الفخر أظهر تعففاً

(١) الخلعة: هى ما يخلعه السلطان من الثياب الفاخرة على أكابر الدولة والأمراء والمقربين إليه ممن أدوا إلى الدولة خدمات متميزة، وهى في الأغلب لباس مؤلف من جبة مطرزة وعمامة وسيف، وكان لها أهمية خاصة في العصر المملوكي، لأنها تعني تعيين المخلوع عليه في منصبه وتثبيته فيه، وكانت تُهدى للأمراء وغيرهم في المناسبات المختلفة، وتكون تعبيراً عن رضا السلطان وثقته لمن تمنح له. القلقشندي: صبح الأعشى ١٨٩/٤، ١٩٠، مصطفى عبد الكريم الخطيب: معجم المصطلحات والألقاب التاريخية ص ١٦٥، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط ١، ١٤١٦ هـ/١٩٩٦ م.

(٢) ابن أيبك: كنز الدرر ٩ /٢٣٩ ، ٢٤٤.

عن قبولها، وأعلن أنها خرجت منه إلى السلطان، واقترح عليه أن يبني له بها مسجداً، فكان هو الجامع الجديد [١] ، الذي أشرف الفخر بنفسه على بنائه للناصر محمد [٢].

ورأى السلطان – حفاظاً على هيبته – ألا يبادر بعزل ابن شيخ السلامية من نظر الجيش، ويستقر بالفخر مكانه، بل تدرج في الأمر، فأمر برجوع الفخر ليصبح صاحب ديوان الجيش، بدلاً من ابن حشيش[٣]، ثم أقره شريكاً لابن شيخ السلامية في نظر الجيش المصري في جمادى الأولى سنة٧١٢ هـ/سبتمبر١٣١٢م، فصارا ناظرين بغير صاحب ديوان، ثم أمر السلطان في المحرم

(١) كان للفخر جهد مشكور في إقامة الجامع الجديد لسلطانه الناصر محمد سنة ٧١٢ هـ/١٣١٢م على شاطئ النيل من ساحل مصر الجديدة بموردة الخلفاء، فهو صاحب فكرة بنائه، واختيار موقعه، والإشراف على بنائه، حتى افتتح للصلاة، وظل عامراً حتى عصر المقريزي. المقريزي: المواعظ ٤ /١٠٢، السلوك ٢ /٤٦٩.

(٢) النويري: نهاية الأرب ٣٢ /١٩٧، الصفدي: الوافي ٤ /٢٣٩، المقريزي: المقفى ٥١٦/٦، ٥١٧.

(٣) ابن حشيش: هبة الله بن مسعود بن أبي الفضائل معين الدين، ولد سنة ٦٦٦ هـ/١٢٦٨م، عمل بالكتابة في الدواوين ومهر فيها، وتدرج في الوظائف بمصر وبلاد الشام، وعمل في ديواني الجيش بهما، وانفرد بنظر الجيش في دمشق خلفاً لابن شيخ السلامية سنة ٧١٢هـ/١٣١٢م، ثم شاركه فيه بعد عودته، و ناب عن الفخر في نظر الجيش المصري لما خرج للحج سنة ٧٢٨ هـ/١٣٢٨م، وتوفي فيها.النويري: نهاية الأرب ٣٣ /٢٩٦، الصفدي: أعيان العصر ٥ /٥٣٨ – ٥٤٠، ابن حجر: الدرر ٦ /١٧٠.

سنة ٧١٣هـ/أبريل ١٣١٣م بإنفراد الفخر بنظر الجيش المصري، وعودة ابن شيخ السلامية إلى نظر الجيش الشامي كما كان من ذي قبل، وبذلك استعاد الفخر مكانته في الدولة، وظل منذ تلك الواقعة منفرداً بوظيفته حتى وافته المنية (١).

ولم يغضب الناصر محمد على الفخر بعد تلك الواقعة سوى مرة واحدة؛ بسبب كثرة معارضة الفخر له في مجلسه، مما دفع السلطان إلى توبيخه وأمره بالخروج من إيوانه، فغضب الفخر وصرح بأن السلطان لو ضرب عنقه فلن يلي له عملاً بعد اليوم، فكاد الناصر محمد أن يبطش به لما سمع مقولته، لولا أن أسرع بعض الأمراء بنزع فتيل الأزمة، وإخراج الفخر من مجلس السلطان، وتوبيخه على ما بدر منه، ثم عادوا وتشفعوا فيه عند الناصر محمد، فرضي عنه سريعاً وخلع عليه وأعاده إلى عمله، بعد أن أوصاه بألا يعترض عليه في مجلسه، ولايكون متجترئاً عليه فيما يقضي فيه (٢). وإن دل هذا على شيء، فإنما يدل على مكانة الفخر عند الناصر محمد، الذي صفح عنه سريعاً، بالرغم

(١) النويري: نهاية الأرب ٣٢ /١٩٧، المقريزي: السلوك ٢ /٤٨٥، المقفى ٥١٦/٦، ٥١٧.

(٢) المقريزي: المقفى ٥١٨/٦، ٥١٩، ابن حجر: الدرر ٥ /٣٩٨، ٣٩٩.

من حدة الموقف الذي كان بينهما، والذي كان يشي بنزول العقاب به، بيد أن مكانته وحسن نهوضه بمهام عمله، ذلك الذي فشل المناظرون له في القيام به، حالت دون نزول عقاب السلطان به.

تلك كانت آخر الوقائع التي غضب فيها الناصر محمد على الفخر، ومن بعدها استقرت أقدام ناظر الجيش في عمله ومكانته لدى سلطانه، ومما يدلك على هذه المكانة العالية التي حازها الفخر أن السلطان قال لجندي طلب منه إقطاعاً وألح عليه فيه: لوكنت ابن قلاوون وكتبت لك بشيء مما تريد، لم يعطك الفخر إقطاعاً يدر عليك أكثر من ثلاثة آلاف درهم(١)، مما يشير إلى أن الفخر لم يكن يستنكف أن يرد أمراً حتى ولو كان صادراً من السلطان نفسه، إذا كانت فيه مخالفة لقواعد عمله، وهذا يدل على علو مكانته، ورسوخ أقدامه في عمله، والتزامه بالقواعد المرعية، ورد ما عداها (٢).

ولم تكن علاقة السلطان بالفخر قاصرة على شؤون عمله فحسب، بل كان الناصر محمد يمازحه أحياناً، ويخصه ببعض أسرار أهل بيته، ومن ذلك إخباره له بما ادعته زوجه العجوز بنت

(١) الصفدي: الوافي ٤ /٢٣٩، ابن حجر: الدرر الكامنة ٥ /٣٩٨ .

(٢) الصفدي: الوافي ٤ /٢٣٩، المقريزي: المقفى ٥١٩/٦.

كوكاي [١] بأنها حبلى، ولما تبين للسلطان عدم صحة ذلك وأخبر الفخر قال: ألم أقل لك إنها عجوز نحس ؟ [٢]، وهذه الثقة التي تحدث بها الفخر عن زوج الناصر تنبئ بلا شك عن مكانته عند سلطانه، الذي أطلعه على أمر خاص بأهل بيته، ثم تقبل ما قاله في حق زوجه برحابة صدر.

كما وضع الناصر محمد ثقته في الفخر، وكلفه بالمشاركة في الروك[٣] الناصري سنة ٧١٥هـ/١٣١٥م، حيث " **قرر السلطان**

---

(١) كوكاي: أحد كبار الأمراء في عهد الناصر محمد، تزوج تنكز نَائِب الشَّام ابنته، مَاتَ فِي الطَّاعُون سنة ٧٤٩ هـ/١٣٤٨ م. الصفدي: الوافي ٢٤ /٢٨٢، ابن حجر: الدرر الكامنة ٤ /٣١٥.

(٢) الصفدي: الوافي ٤ /٢٣٩، ابن حجر: الدرر الكامنة ٥ /٣٩٩ .

(٣) الروك: من الفعل راك، وهى عملية مسح وقياس الأراضي الزراعية وفك الزمام، وذلك لتقدير الخراج المستحق عليها لبيت المال، وتوزيع الإقطاعات بين الأمراء والمماليك من جديد، والذي دفع الناصر للقيام بذلك، كثرة إقطاعات مماليك الأميرين بيبرس الجاشنكير وسلار، وخوفه من حدوث فتنة إذا ما استولى عليها بصورة مباشرة، وقسم الناصر أراضي السلطنة في هذا الروك إلى أربعة وعشرين قيراطاً، فوزع على أمرائه وجنوده أربعة عشر قيراطاً، واستبقى لنفسه عشرة قراريط. المقريزي: المواعظ: ١ /١٦٦، ١٦٧، محمد جمال الدين سرور: دولة بني قلاوون ص ٢٨٩، ٢٩٠، دار الفكر العربي، د ط ت، محمود رزق سليم: عصر سلاطين المماليك ونتاجه العلمي والأدبي الجزء الأول المجلد الثاني ص ٢٧٧ ، مكتبة الآداب، القاهرة، ط٢، ١٣٨١ – ١٣٨٤هـ /١٩٦٢ – ١٩٦٥م.

مع الفخر... روك البلاد " [١]، فأمر الناصر محمد بعض الأمراء القيام بالروك، ومسح البلاد المصرية كافة، وذلك في شعبان سنة ٧١٥ هـ /أكتوبر١٣١٥م، وكتابة سجلات بمتحصل كل بلد، ومساحة الأراضي الزراعية ومقدار محاصيلها، وما يخص منها الأمراء والجنود وديوان الخاص السلطاني، فقام الأمراء بمهمتهم في خمسة وسبعين يوماً، ثم عادوا بسجلاتهم ووضعوها بين يدي السلطان[٢].

فسلم الناصر محمد هذه السجلات للفخر، وكلفه بمهمة ضبط وإعداد السجلات الخاصة بأراضي السلطنة؛ لإعادة تقدير الإقطاعات للأمراء والجنود بهدف تقليص النفقات، وتحقيق فائض لصالح خزانة السلطان، مما كان يحصله الأمراء والجنود من عهد سابقيه من السلاطين، ومن دون إحداث مشاكل معهم، لنزع هذه الأراضي والإقطاعات منهم بصورة مباشرة، كما أمر السلطان الفخر بتسجيل البلاد التي ستدخل بموجب هذا الروك ضمن

---

(١) المقريزي: السلوك ٢ /٥٠٤.

(٢) النويري: نهاية الأرب ٣٢ /٢٢٧، ٢٢٨، المقريزي: السلوك ٢ /٥٠٤ – ٥٠٦ ، ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ٩ /٤٢، ٤٣، وزارة الثقافة والإرشاد القومي، دار الكتب، مصر، د ط ت، العريني: المماليك ص ١٧٧. ١٧٨.

الخاص السلطاني، فقام الفخر ومعه كاتب السر ومستوفي الدولة بمهمته خير قيام، ثم رفع السجلات إلى السلطان، والتي شملت إعادة توزيع الإقطاعات على المستحقين، بصورة حققت للسلطان مراده من الروك دون أن يصطدم بأمرائه، كما أضيفت إلى الخاص السلطاني عدة نواح [١] كانت ضمن إقطاعات الامراء من قبل[٢].

وكان للفخر أثر واضح في قرارات السلطان، الذي يعدل أحياناً عن رأيه إلى ما يشير به ناظر الجيش، ومن ذلك حينما عزم السلطان في سنة ٧٢٨ هـ/١٣٢٨م على حفر خليج من حلوان [٣] إلى أسفل القلعة لنقل الماء، ثم رفعه إليها لينعم به طوال العام، ولا يتكلف السلطان مؤونة حمله ونقله، واستقدم السلطان

(١) وهي الجيزة وأعمالها، والكوم الأحمر، ومنفلوط، والمرج، والخصوص، وغير ذلك من النواحي. محمد جمال الدين سرور: دولة بني قلاوون ص ٢٩٠.

(٢) النويري: نهاية الأرب ٣٢ /٢٢٧، ٢٢٨، المقريزي: السلوك ٢ /٥٠٤ – ٥٠٦، ابن تغري بردي: النجوم ٩ /٤٢، ٤٣.

(٣) حلوان: تعرف بحلوان البلد، وهى تابعة في إدارتها لمديرية الجيزة، تقع على الشاطئ الشرقي للنيل غرب مدينة حلوان الحمامات بثلاثة كيلو مترات، وجنوبي القاهرة بعشرين كيلو متراً من مصر القديمة، اختطها عبد العزيز بن مروان والي مصر سنة ٧٠ هـ/٦٨٩م وعمرها. محمد رمزي: القاموس الجغرافي للبلاد المصرية من عهد قدماء المصريين إلى سنة١٩٤٥م، القسم الثاني الجزء الأول ص ١٢، ١٣، الهيئة المصرية العامة للكتاب، د ط، ١٩٩٤م.

المتخصصين من بلاد الشام لإنجاز المشروع، واستشار خاصته فيه، فكان الفخر هو الوحيد الذي عارض المشروع؛ لطول مدة العمل فيه، وكثرة النفقات، وإرهاقه للرعية والدولة، فعدل السلطان عن مشروعه ومال لرأي الفخر(١)، مما يدلك على مقدار تأثير الفخر على السلطان، الذي اقتنع بحجته دون غيره من سائر خواصه من الأمراء والمباشرين .

مما سبق عرضه يتبين للباحث أن الفخر نال من المكانة العالية عند سلطانه الناصر محمد ما لم ينله غيره من معاصريه وأقرانه، فعظُم شأنه على غيره، وعلت كلمته على نظرائه، وتمكن في الرئاسة تمكناً كبيراً، وصار صدراً معظماً في الدولة، ومبجلاً عند أمرائها، وتمكن من الناصر محمد حتى صار من اجتمع بالسلطان من دون علم الفخر يُخشى عليه أن تحل به نقمته، ولم يكن لأحد من أمراء الدولة وكبرائها ما للفخر من الإقدام والجرأة على السلطان، كما كان الرجل أثيراً لدى الناصر محمد، فرافقه غير مرة لأداء شعائر الحج، وكان السلطان يستشعر فراقه إن

(١) المقريزي: السلوك ٣ /١١٢، ١١٣، ابن تغري بردي: النجوم ٩ /٩٠، ٩١.

غاب عنه لبعض شؤونه[١] .

ومما يدلك على المكانة التي حازها الفخر عند سلطانه تلك الأقوال التي تناقلها المؤرخون عنه، فقد قال عنه النويري[٢]: " **تقدم عند الناصر، وعظُم شأنه، وارتفع محله، وعلت مكانته** "، بينما علق ابن أيبك[٣]على مكانته عند الناصر بقوله: " **الذي وصل إليه فخر الدين من الحرمة والهيبة والنهضة والكفاية ما وصل إليه أحد قبله ولا بعده، وكان له عند السلطان المنزلة الرفيعة حتى كان لا يخرج عن رأيه** "، وشاركه الرأي ابن الجزري[٤] فقال: " **كانت له المنزلة العالية عند السلطان، ومهما أشار به لا يعارضه فيه معارض، وكانوا يسمونه وزير الوزراء وكبير الكبراء، وما بلغ**

(١) الصفدي: الوافي ٤ /٢٣٩، ابن حبيب (الحسن بن عمر بن الحسن ت٧٧٩ هـ /١٣٧٧م): تذكرة النبيه في أيام المنصور وبنيه ٢/٢٢٧، حققه ووضع حواشيه د/محمد محمد أمين، وقدم له د/سعيد عبد الفتاح عاشور، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، د ط، ١٩٨٦م، ابن حجر: الدرر الكامنة ٥ /٣٩٨ .

(٢) نهاية الأرب ٣٢ /١٩٧.

(٣) كنز الدرر ٩ /٣٦١ .

(٤) (محمد بن إبراهيم بن أبي بكر ت ٧٣٨ هـ/م): تاريخ حوادث الزمان وأنبائه ووفيات الأكابر والأعيان من أبنائه ٢ /٥٦١، تحقيق /عمر عبد السلام تدمري، المكتبة العصرية، بيروت، ط ١، ١٤١٩ هـ/١٩٩٨ م،

أحد مرتبته من الأعيان عند السلطان "، وأثنى عليه ابن حبيب[١] فقال: " **حصل له من الرتبة والمكانة والوجاهة ما لا مزيد عليه بين معاصريه وأقرانه** ".

ونظراً لهذه المكانة العالية التي حازها الفخر ناظر الجيش في الدولة المملوكية طيلة ثنتين وعشرين سنة فقد جعله ابن أيبك[٢] أحد الأركان الأربعة التي قامت عليها دولة الناصر محمد فقال: "**جمع الله تعالى في ذلك الزمان لمولانا السلطان أربعة أركان حتى عادت محاسن دولته تتلى آياتها بكل مكان وهم: كريم الدين الكبير[٣] وسياسته،**

---

(١) تذكرة النبيه ٢ /٢٢٧.

(٢) كنز الدرر ٩ /٢٨٢.

(٣) كريم الدين الكبير: أكرم بن هبة الله القبطي، عمل بالكتابة فى الديوان، وأسلم على يدي الأمير بيبرس الجاشنكير، وتولى الإشراف على ديوانه، حتى عاد السلطان الناصر محمد للسلطنة في المرة الثالثة، فقبض عليه وصادره لتضييقه عليه في فترة حجر بيبرس الجاشنكير، ثم أطلق الناصر محمد سراحه وولاه نظر الخاص عند استحداثه سنة ٧١٠ هـ/١٣١٠م، فصارت أمور الدولة كلها بيده، وعلت مكانته وثروته وإنعامه على الأمراء بغير إذن السلطان، مما دفعه إلى القبض عليه، ومصادرة ثرواته، ونفيه إلى الشام ثم أسوان في سنة ٧٢٤ هـ /١٣٢٤م، فوجد بها مشنوقا. الصفدي: الوافي بالوفيات ١٩/٦٦– ٧٠، ابن حجر: الدرر الكامنة ٣ /٢٠٣ – ٢٠٦.

وعلاء الدين بن الأثير[١] ورياسته، والقاضي فخر الدين وهيبته، وبهاء الدين أرسلان[٢] ودربته ".

فكل هذه الأقوال والشواهد السالف ذكرها تدل بما لايدع مجالاً للشك على المكانة المرموقة التي تبوأها الفخر ناظر الجيش في سلطنة الناصر محمد بن قلاوون، وعظم هيبته ومكانته في قلوب معاصريه من الأمراء والكتاب، وحسن ثناء المؤرخين عليه، ذلك الذي ظهر جلياً واضحاً في حديثهم عنه.

وظلت علاقة الفخر بالناصر محمد معقودة الأواصر حتى

---

(١) علاء الدين بن الأثير: علي بن أحمد بن سعيد بن محمد بن سعيد، الحلبي الأصل، المصري الوفاة، ولد سنة ٦٨٠ هـ/١٢٨١م، وعمل بالكتابة في دواوين بلاد الشام كأبيه، وكان نبيهاً ذكياً فائق الكتابة، رافق الناصر محمد لما توجه إلى الكرك سنة ٧٠٩ هـ/١٣٠٩م، وأكرم وفادته، فأعجب به، ولما عاد الناصر محمد إلى مصر جعله كاتباً للسر، وبلغ علاء الدين من المكانة عند سلطانه ما لم يبلغه غيره، وكانت له هيبة على سائر المباشرين، توفي سنة ٧٣٠ هـ/١٣٣٠م. ابن حجر: الدرر الكامنة ٤ /١٥ – ١٧.

(٢) بهاء الدين أرسلان بن عبدالله، كان أولاً من خواص الأمير سلار، ولما عاد الناصر محمد بن قلاوون من الكرك سنة ٧٠٩ هـ/١٣٠٩م ونزل الريدانية وأراد الصعود إلى القلعة، حذره بهاء الدين في خيمته من جماعة من الأمراء هموا بالفتك به، فخرج الناصر من ظهر الخيمة، وصعد إلى القلعة، وشكره على نصيحته، وجعله من خواصه، ثم ولاه الدوادارية، وعظم أمره واشتهر ذكره، وكان حسن العبارة، يكتب بخطه في المهمات السلطانية، توفي سنة ٧١٧ هـ/١٣١٧م. ابن حجر: الدرر الكامنة ١ /٤١٤ – ٤١٥ .

نهايتها، ولما مرض الفخر في رجب سنة ٧٣٢هـ/أبريل١٣٣٢م وشعر بدنو أجله، خاف من مصادرة السلطان لأولاده من بعده، – كما كان يحدث لأسلافه من المباشرين –، فصعد إلي الناصر محمد في القلعة ليودعه وليوصيه بأولاده خيراً، ويعلمه بما أوصى له به من أموال ونفائس، وعاد الفخر إلى بيته، ثم أرسل في طلب ابن هلال الدولة[١]شاد الدواوين، وسلمه وصية مكتوبة إلى السلطان، يلتمس منه فيها ألا يتعرض لأولاده من بعده، فقد أوصى له بكل ثرواته، ولم يبق لهم سوى بعض أملاكه العقارية التي يعيشون منها، ولما مات الفخر في الخامس عشر من رجب سنة ٧٣٢هـ/الحادي عشر من أبريل١٣٣٢م عن ثلاث وسبعين سنة، ضرب السلطان بوصيته عرض الحائط، وأمر ابن هلال الدولة بالنزول إلى بيت الفخر، وفرض الحوطة[٢]علي كل ما فيه، فلم

(١) ابن هلال الدولة: علم الدين علي، ولد بشيزر، ثم قدم مصر، فتولى شاد العمائر ثم شاد الدواوين، وشاد الخاص، وغير ذلك من الوظائف، وعلت منزلته حتى ضاهى الوزراء، وكان كثير الخير والبر والمعروف والعفة، صادره السلطان سنة ٧٣٤هـ /١٣٣٣م ولم يهنه، ثم وشى به النشو حتى أخرجه السلطان وسجنه في الإسكندرية، ثم أطلق سراحه بشفاعة تنكز فيه، وانتقل إلى دمشق ثم شيزر، وظل بها حتى توفى سنة ٧٣٩هـ /١٣٣٨م. المقريزي: السلوك ٢٦٢/٣، ابن حجر: الدرر الكامنة ٤ /١٦١.

(٢) الحوطة: إحصاء الأموال لدفع الضرائب عنها. دهمان: معجم الألفاظ ص ٦٥.

يجد فيه سوى عشرة آلاف دينار وبعض اللؤلو، وهو ما أوصى به الفخر للسلطان(١).

لم يقتنع الناصر محمد بأن هذه الأموال والجواهر القليلة هي كل ثروات رجل كالفخر، استقرت أقدامه في عمله سنين طويله، فأمر السلطان بالقبض على لؤلؤ مملوك الفخر، وهدده بالعقاب الشديد إن لم يكشف له عن كل ثروات سيده، فارتاع من ذلك، وحصرها في سجلات ورفعها إلى السلطان، واشتملت على متاجر وبساتين وضياع للفخر في مصر وبلاد الشام بحيث لم يخل بلد إلا وله فيه أملاك، فأمر السلطان بمصادرتها وبيعها وحمل ثمنها إليه، وحاز الناصر محمد من ذلك ما يزيد على مليون درهم، سوى ما تركه لأولاد الفخر من أملاك، ناهيك عن أوقافه التي أقرها الناصر محمد ولم يتعرض لها، كما أكرم السلطان ذرية الفخر فلم ينلهم سوء، حيث أقر ولده أحمد كاتباً للجيش، وحفيده محمد بن عبدالله صاحباً لديوان الجيش، كما كانا من قبل(٢) .

---

(١) اليوسفي (موسى بن محمد بن يحيى ت ٧٥٩هـ /١٣٥٧م): نزهة الناظر في سيرة الملك الناصر ص٤٤٦، ، تحقيق ودراسة د/أحمد حطيط عالم الكتب، عالم الكتب، بيروت، ط١، ١٤٠٦هـ /١٩٨٦م، الصفدي: الوافي ٤ /٢٣٩، المقريزي: السلوك ٣ /١٥٥.

(٢) اليوسفي: نزهة الناظر ص ٤٤٧، ٤٤٨، ابن أيبك: كنز الدرر ٩ /٣٦٢، الصفدي: الوافي ٤ /٢٣٩، المقريزي: المقفى ٦ /٥١٩، ٥٢٠ .

وكان من الشائع في العصر المملوكي اكتناز الأمراء والمباشرين لمثل هذه الثروات، وتوزيعها على ربوع البلاد، للحيلولة دون مصادرتها إن دارت الدائرة عليهم، وتعرضوا لنكبات السلاطين، أو وافتهم المنية، كما كان جل هؤلاء المباشرين يتظاهرون بالقناعة، وأحيانا ضيق ذات اليد، كما فعل الفخر، الذي تعفف في آخريات حياته عن تناول راتبه، واكتفي بكماجة[١]واحدة تأتيه من المخابز السلطانية ليقيم به أوده [٢]، ولكن السلطات الحاكمة لم تكن بالتي ينطلي عليها مثل هذا الأمر، فكانت تغض الطرف عن حيازتهم لمثل هذه الثروات، بيد أنها تبادر بمصادرتها بعد وفاتهم، وضمها لخزانة الدولة، وإن كان الناصر محمد لم يولغ كثيراً في مصادراته لثروات وأملاك ناظر جيشه، فلم يتعرض لأوقافه البتة، كما أحسن لذريته فأقرهم علي ما بيدهم من وظائف إكراماً للفخر.

ولم يبدر من الناصر محمد في حق الفخر بعد وفاته شيء يشي بسخطه عليه، سوى أنه تنفس الصعداء لما وصله خبر موته؛ لأن الفخر كان يغل يد السلطان عن فعل ما يريد من الشر[٣]، كما كان السلطان يترحم

(١) كماجة: لفظ فارسي، وهو نوع من أنواع الخبز المصنوع من دقيق القمح، معروف عند العامة في بلاد الشام. الخطيب: معجم المصطلحات ص ٣٧١.

(٢) الصفدي: الوافي ٤ /٢٣٨، ٢٣٩، المقريزي: المقفى ٦ /٥١٦، ٥١٩، ابن حجر: الدرر ٥ /٢٠٧، ٣٩٩.

(٣) المقريزي: المقفى ٦ /٥١٩، ابن حجر: الدرر ٥ /٣٩٩.

علي الرجل إذا ما ذكرت سيرته في مجلسه، ويدافع عنه إذا ما حاول أحد النيل منه، كما حدث من الأمير صلاح الدين[١]الدوادار[٢] الذي شكك في إسلام الفخر، فبكته السلطان وألجمه[٣]، وإن دل هذا على شيء فإنه يدل على المكانة العالية التي حازها الفخر عند سلطانه الناصر محمد حياً وميتاً.

وأما عن النواحي الاجتماعية في شخصية الفخر، فقد كان الرجل مشهوراً بالمكارم والإحسان والإيثار باذلاً للمعروف، فيه بر وصدقة للمساكين والمستحقين، جعل لهم حقاً معلوماً من ماله كل شهر، ناهيك عما كان يتصدق به في حجه على أهل الحرمين، كما كان يتحثث المجاورين من أهل الخير والصلاح، ويفرق عليهم

(١) صلاح الدين: يوسف بن أسعد الدمشقي، عمل في بداية حياته بالكتابة في الدواوين، ثم تحول إلى الوظائف العسكرية، فتولى نيابة الأسكندرية وغيرها، ثم خرج من مصر وتولى نيابة حلب، ثم تنقل في الولايات فتولى شد الدواوين، ثم المهمندارية، ثم استقر دواداراً للسلطان، واشتد في تعامله مع الكتاب، فمكروا به حتى أخرجه السلطان على إمرة ببلاد الشام ثم تولى صفد و طرابلس، ومن بعدها حلب، توفي سنة ٧٤٥ هـ/١٣٤٤م. الصفدي: الوافي ٢٩ /٤٥، ٤٦، ابن حجر: الدرر ٦ /٢٢٠، ٢٢١.

(٢) الدوادار: اسم فارسي مركب من لفظين، أحدهما: عربي وهو الدواة، والثاني: دار ومعناه ممسك، وصاحب هذه الوظيفة هو الذي يحمل دواة السلطان أو الأمير أو غيرهما، ويتولى أمرها مع ما يلحق ذلك من المهمات، كتبليغ الرسائل عن السلطان، وتقديم القصص إليه، والمشاورة على من يحضر إلى الباب الشريف، وتقديم البريد. القلقشندي: صبح الأعشى ٤ /١٩، البقلي: التعريف ص ١٣٩.

(٣) اليوسفي: نزهة الناظر ص ١٣١، ١٣٢، ابن حجر: الدرر ٦ /٢٢٠، ٢٢١.

الهبات والعطايا، وكان راداً للظلم مدافعاً عن الحق، ساعياً في قضاء حوائج الناس، ومن ثم انتفع به خلق كثير من معاصريه في مصر وبلاد الشام، لمكانته عند سلطانه وإقدامه عليه بصورة لم تكن لأحد من نظرائه(١)، وهذا ما دفع ابن الوردي(٢)إلى القول: " **كان له بر، وعدمه الناس وعرفوا قدره بوفاته، فإنه كان يشير على السلطان بالخيرات، ويرد عنهم أموراً معظمات** "، وختم ترجمته بقوله:

كم أمور حدثت بعــده ... حتى بكت عليه حزناً الرتوت(٣)

لو لم يمت ما عرفوا قدره ... ما يعرف الإنسان حتى يموت

وأما عن الجانب الديني في شخصية الفخر، فقد كان الرجل متواضعاً، محباً لأهل العلم، صاحب بر وإحسان بهم، فاتحاً لهم أبواب

---

(١) ابن أيبك: كنز الدرر ٩ /٣٦١، الصفدي: الوافي ٤ /٢٣٨، ٢٣٩، المقريزي: المقفى ٦ /٥١٦، ٥١٩.

(٢)(زين الدين عمــر بن مظفرت ٧٤٩هـ /١٣٤٨م): تاريخ ابن الوردي ٢/٢٨٩، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤١٧هـ/١٩٩٦م.

(٣) الرَّتوتُ: جمع الرَّتتُ، وهو الرئيس من الرجال في الشرف والعطاء، فيقال: هؤلاء رتوت البلد. ابن منظور(محمد بن مكرم ت٧١١هـ /١٣١١م) لسان العرب: مادة رتَّ ٢/٤٣، دار صادر، بيروت، ط٣، ١٤١٤ هـ .

بيته، سمع الحديث من الشيخ الأبرقوهي[١]وقرئ في بيته تترى، كما أنه حج عشر مرات، وزار القدس كثيراً، وأحرم منها للحج، ولما نزلها ذات مرة لمباشرة بعض مهامه، وسار في شوارعها، وعاين كنائسها، سمعه من كان يسير خلفه يردد بصوت خافت قوله تعالى: ﴿ رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ ﴾[٢].

وكان للفخر جهد مشكور في وجوه البر والصدقات وعمارة المساجد والربط والمدارس، فبنى بالرملة بيمارستاناً، وأقام ثلاث مدراس في نابلس والخليل والقدس[٣]، كما بنى أحواضاً في

(١) الأبرقوهي: أحمد بن إسحاق بن محمد الهمداني الأصل، كان أبوه قاضي أبرقوه من عمل شيراز، وولد له أحمد في سنة ٦١٥ هـ/١٢١٨م، فأسمعه على كثير من محدثي عصره في بلاده، ثم رحل للسماع من محدثي بغداد والموصل ودمشق والقدس، ثم استقر في مصر فسمع بها وحدث، وسمع منه خلق كثير كالمزي وابن سيد الناس والبرزالي وغيرهم، وكان له تلاميذ كثر من مختلف البلدان، مات في مكة سنة ٧٠١ هـ/١٣٠١م. الصفدي: الوافي ٦ /١٥١، ١٥٢، ابن حجر: الدرر ١ /١١٧.

(٢) سورة آل عمران آية ٨، ابن الجزري: تاريخ حوادث الزمان ٥٦١/٢، الصفدي: الوافي ٤ /٢٣٨، ٢٣٩، المقريزي: المقفى ٦ / ٥١٩.

(٣) وهي المدرسة الفخرية، ومكانها داخل سور المسجد الأقصى، ومجاورة لجامع المغاربة الذي تقام فيه صلاة المالكية من جهة الغرب، وباب المدرسة من داخل المسجد عند الباب الذي يخرج منه إلى حارة المغاربة. الحنبلي: (مجير الدين العليمي ت ٩٢٨هـ /١٥٢١م): الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل ٣٤/٢، تحقيق /عدنان يونس نباتة، مكتبة دنديس، عمان، ط١، ١٤٢٠ هـ/١٩٩٩ م.

الطرقات لسقيا الماء في مصر وبلاد الشام [١]، وعمر بمصر عدة مساجد سميت بالفخرية وهى:

١ – جامع في بولاق[٢]خارج القاهرة، كان موضعه يسمى بخط خص الكيالة، وظل معموراً حتى عصر المقريزي.

٢ – جامع في جزيرة الفيل[٣] بضواحي القاهرة، ما بين بولاق ومنية السيرج [٤]، ظل معموراً حتى سنة ٧٩٠ هـ/١٣٨٨ م، وصلى فيه المقريزي ثم اندثر.

---

(١) ابن الجزري: حوادث الزمان ٢ /٥٦١، الصفدي: أعيان العصر ٥ /٥٦، مجير الدين الحنبلي: الأنس الجليل ٢ /٣٤.

(٢) بولاق: من أعمال الجيزة، و كانت تعرف بمنية بولاق، ثم عرفت ببولاق التكروري، نسبة إلى الشيخ يوسف بن عبدالله التكروري الذي عاش ودفن فيها، وهي، وكانت موردة ترسو فيها السفن القادمة إلى القاهرة والمسافرة منها. محمد رمزي: القاموس الجغرافي القسم الثاني الجزء الأول ص ٩.

(٣) جزيرة الفيل: مكانها وسط النيل، تجاه ناحية منية السيرج، وهذه الجزيرة لم تكن ظاهرة في أيام الدولة الفاطمية، حتى غرق مركب كبير في النيل، كان يعرف باسم الفيل، وتُرك مكانه، فربا عليه الرمل، وانطرد عنه الماء، فصارت جزيرة، فيما بين منية السيرج، وأرض الطبالة. المقريزي: المواعظ ٣/٣٢٥، ٣٢٦.

(٤) منية السّيرج: كانت تسمى بمنية الأمراء، لكثرة من سكنها منهم، مكانها على شاطئ النيل في طريق الإسكندرية على مسافة فرسخ من القاهرة، وفي سنة ٦٨٠هـ /١٢٨١م امتد طمي الخور الذي كان يفصلها عن جزيرة الفيل واتصل بشاطئ النيل، وبذلك أصبحت مساكن المنية في وسط الأرض الزراعية، واشتهرت بمنية السيرج حيث كانت بها معاصر للسمسم الذي يستخرج من زيت السيرج. محمد رمزي: القاموس الجغرافي القسم الثاني الجزء الأول ص ١٤، ١٥.

٣ – جامع في جزيرة الروضة [١] تجاه مدينة مصر، ظل معموراً حتى عصر المقريزي.

٤ – جامع في جسر الأفرم [٢] بمصر المحروسة [٣].

تلك إذن كانت أهم ملامح حياة الفخر منذ ظهوره على مسرح الأحداث في الدولة المملوكية، وعلاقته بسلطانه الناصر محمد ومعاصريه، وجوانب من جهوده في الاضطلاع بمهام عمله، وملامح شخصيته الاجتماعية والدينية. وأما دوره في عزل نائب السلطنة والوزير وتعطيل منصبيهما، فهذا ما سيعرض له الباحث في المبحث الثالث والأخير.

---

(١) جزيرة الروضة: سميت بجزيرة مصر، ثم بجزيرة المقياس لوجوده بها، ثم جزيرة الصناعة، ثم جزيرة الروضة لإنشاء بستان الروضة بها، ولم تزل معروفة بهذا الاسم، تقع في نهر النيل أمام الفسطاط تجاه مصر القديمة وأرض القصر العالي من جهة، والجيزة من الجهة الأخرى، وبها منيل الروضة، وكانت متنزها لأهل مصر. القلقشندي: صبح الأعشى ٣/٣٧٩، ٣٨٠، المقريزي: المواعظ والاعتبار ٣/٣٢١– ٣٢٤، محمد رمزي: القاموس الجغرافي القسم الأول ص ٢٠٨.

(٢) جسر الأفرم: كان هذا الجسر يقع بظاهر مدينة مصر، فيما بين المدرسة المعزية برحبة الحنا قبلي مصر، وبين رباط الآثار النبوية، وكان موضعه مغموراً بالماء، ثم انحسر عنه فصار فضاء ابتنى الناس فيه، ثم صار موضع الجسر بركة يدخل منها الماء إلى البركة الشعيبية، ولما استأجرها الأمير أيدمر الأفرم الصالحي وجعلها بستاناً ردم البركة، وبنى حيطان البستان وجسر عليه. المقريزي: المواعظ ٢ /١٧٦، ٣ /٢٩٣.

(٣) ابن أيبك: كنز الدرر ٩ /٣٨٨، المقريزي: المواعظ ٤ /١٣٣، ١٣٤ .

المبحث الثالث

دور الفخر في عزل نائب السلطنة أرغون الناصري والوزير مغلطاي الجمالي وتعطيل منصبيهما

اضطلع الفخر في أخريات حياته بدور سياسي بارز وفريد لا علاقة له بمهام وظيفته الديوانية، فقد أوحى إلى السلطان الناصر محمد بعزل نائب السلطنة أرغون(١)الناصري سنة ٧٢٧ هـ/١٣٢٧م ،

(١) أرغون الناصري الدوادار، أهداه المنصور قلاوون لولده الناصر محمد، فتربى معه ولازمه ورافقه عند اعتزال الناصر السلطنة وذهابه إلى الكرك سنة ٧٠٩ هـ/١٣٠٩م، ولما استعاد الناصر السلطنة أنعم عليه بالإمرة، ثم تدرج في سلك الوظائف، فتولى الدوادارية، ثم نيابة السلطنة سنة ٧١٢ هـ/١٣١٢م، وشكرت سيرته، وصار من أعيان أمراء الناصر وأنبلهم، حج أرغون مع الناصر غير مرة، وصاهره السلطان فزوج ابنته لابنه محمد، ثم عزله من النيابة واستقر به نائباً لحلب، فحسنت سيرته فيها، وظل في حكمها حتى وافته المنية سنة ٧٣١ هـ/١٣٣١م. النويري: نهاية الأرب ٣٣ /٣١٩، الصفدي: الوافي ٨ /٢٣٢ ، ٢٣٣، المقريزي: المقفى ٢ /١٩ – ٢٣، ابن حجر: الدرر ١ /٤١٧، ٤١٨ .

والإطاحة بالوزير مغلطاي[١]الجمالي سنة ٧٢٩هـ/١٣٢٩م، ليس هذا فحسب، بل وأغراه بتعطيل هاتين الوظيفتين؛ لينفرد الفخر بمهامهما وصلاحياتهما مع ما بيده من نظر الجيش، وليصير هو المعول عليه في أمور الدولة بعد السلطان، فكيف سعى الفخر لذلك ونال مراده ؟ هذا ما يستعرضه الباحث في الصفحات التالية:

أولاً: دور الفخر في عزل النائب أرغون الناصري وتعطيل النيابة.

كان نائب السلطنة يتصدر وظائف أرباب السيف في الدولة المملوكية، فهو يقوم مقام السلطان، ويحكم في كل ما يحكم فيه، وينوب عنه في معظم أموره وشؤونه، ويضطلع بكثير من الأعمال والمهام التي تعد من اختصاصات السلطان وحده، كتعيين كبار أرباب الوظائف في الدولة، أو ترشيح من يتولاها، والتوقيع في كل

(١) مغلطاي الجمالي، كان من مماليك الناصر محمد، ترقى في الوظائف حتي نال الإمرة، ثم الأستادارية سنة ٧٢٣ هـ/١٣٢٣م، وصار من أكابر الأمراء، ثم أضاف إليها الوزارة سنة ٧٢٤ هـ/١٣٢٤م بعد استعفاء عبدالله بن تاج الرئاسة منها، وأبلى الجمالي فيهما بلاء حسنا، فكشف القلاع الشامية وراك نيابة حلب، وأخمد فتنة = = الإسكندرية سنة ٧٢٧ هـ/١٣٢٧م، وظل على منصبيه حتى عزل من الوزارة سنة ٧٢٩ هـ/١٣٢٩م، واحتفظ بالأستادارية حتى وفاته سنة ٧٣٢ هـ/١٣٣٢م. الصفدي: أعيان العصر ٥ /٤٣١، ٤٣٢، المقريزي: السلوك ٣ /١٦٣، ابن حجر: الدرر ٦ /١١٦، ١١٧.

ما يوقع فيه السلطان من المراسيم والقررات، وتوزيع الإقطاعات على مستحقيها، وقصارى القول: إن النائب كان سلطاناً مختصرا(١).

ولم تكن مساعي الفخر ناظر الجيش للإيقاع بأرغون النائب عند السلطان وعزله من منصبه وتعطيل النيابة، وليدة تلك الواقعة التي حرض فيه الفخر سلطانه على أرغون عند خروجه لأداء شعائر الحج في سنة ٧٢٦ هـ/١٣٢٦م، بذريعة أن نكبات السلاطين السابقين لم تأت إلا من نوابهم، وإنما كانت مساعي الفخر قديمة منذ تولى أرغون النيابة سنة ٧١٢هـ/١٣١٢م، وما أعقب ذلك من تنافس بينهما على النفوذ والمكانة في الدولة وعند سلطانهما، حيث مرت علاقات الرجلين بمراحل من التوتر ثم العداء للأسباب التالية:

١ – واقعة الشيخ البكري(٢).

---

(١) القلقشندي: صبح الأعشى ٤ /١٧، ١٨، المقريزي: المواعظ ٣ /٣٧٥، ابن شاهين: زبدة كشف الممالك ص ١١٢.

(٢) البكري: علي بن يعقوب بن جبريل نور الدين المصري الشافعي، ولد سنة ٦٧٣ هـ/١٢٧٣م، درس الفقه والأصول، وقرأ مسند الشافعي على المحدثة ست الوزراء لما قدمت القاهرة، وله مؤلفات في التفسير، ودار بينه وبين السلطان الناصر محمد ما دار، فنفاه إلى دهروط، وتوفي سنة ٧٢٤ هـ/١٣٢٤م. المقريزي: السلوك ٢ /٤٩٥، ٤٩٦، ابن حجر: الدرر ٤ /١٦٤ – ١٦٦ .

كانت أولى حوادث الشقاق بين الرجلين قد وقعت في المحرم سنة٧١٤هـ/مارس ١٣١٤م، حيث قام الشيخ البكري ومريدوه بالهجوم على الكنيسة المعلقة [١]؛ لاستعادة بعض القناديل التي استعارها النصارى للاحتفال بأحد أعيادهم من القسطلاني خطيب جامع عمرو بن العاص، بإشارة من كريم الدين الكبير ناظر الخاص، الذي كان صديقاً للفخر، وحاول البكري بعد استعادته للقناديل النيل من خطيب الجامع العمري، الذي توارى عنه ولجأ إلى الفخر ناظر الجيش، وبثه شكواه من الشيخ البكري [٢].

اجتهد الفخر في الإيقاع بالبكري والنيل منه رعاية لصديقه كريم الدين، فرفع القضية إلى السلطان الناصر محمد، متهماً الشيخ بالجرأة وممارسة الاحتساب من دون وجه حق، ومحاولة النيل من خطيب الجامع العمري، ولما ترامت هذه الأنباء إلى البكري قام هو الآخر باللجوء إلى النائب أرغون، ملتمساً نصرته على كريم الدين الكبير، الذي سمح للنصارى باستعارة القناديل،

---

(١) الكنيسة المعلقة: تقع في حي مصر القديمة بالقرب من جامع عمرو بن العاص، وهى من أقدم الكنائس القبطية التي ما تزال موجودة في مصر، بناها الإمبراطور تراجان في القرن الثاني الميلادي، وسميت بالمعلقة لأنها بنيت على حصنين من أبراج حصن بابليون. المقريزي: المواعظ٤/٤١٣، ٤٣٨، الموسوعة الحرة (ويكيبديا).

(٢) النويري: نهاية الأرب ٣٢ /٢١٢ – ٢١٣، المقريزي: السلوك ٢ /٤٩٥، ابن حجر: الدرر ٤ /١٦٤ – ١٦٥ .

ومن الفخر الذي تعصب له ولخطيب الجامع العمري، ولم يسع السلطان إلا جمع الخصوم أمامه للنظر في القضية، وتجاوز الشيخ البكري في حديثه مع الناصر محمد، فلوح بأنه سلطان جائر فهم بقتله، لولا أن تشفع فيه بعض الأمراء، فأمر بنفيه من مصر، وهو الأمر الذي أثار حفيظة النائب أرغون، الذي اعتبر أن الفخر وحليفه كريم الدين حققا نصراً عليه في هذه القضية [١].

٢ – التنافس بين الرجلين في المكانة.

كانت هناك حالة من التنافس بين أرغون الناصري نائب السلطنة والفخر ناظر الجيش؛ للاستحواذ على المكانة عند الناصر محمد، نظراً لأن الأول منهما كان ثاني رجل في الدولة بعد السلطان، ويشرف على ديوان الجيش وأعماله ومهامه، فلا يحق لناظره الاجتماع بالسلطان مباشرة في أمر من الأمور الخاصة بعمله، بل يراجع فيها النائب[٢]، الذي رسخت أقدامه في وظيفته؛ لاستحواذه عليها ستة عشر عاماً، من سنة ٧١٢ هـ/١٣١٢م،وحتى عزله سنة ٧٢٧ هـ/١٣٢٧م [٣].كما كان الفخر هو الآخر يتبوأ مكانة مرموقة في الدولة المملوكية وعند سلطانه

(١) النويري: نهاية الأرب ٣٢ /٢١٣ – ٢١٤، المقريزي: السلوك ٢ /٤٩٥، ٤٩٦، ابن حجر: الدرر ٤ /١٦٥ – ١٦٦ .

(٢) المقريزي: المواعظ ٣ /٣٧٥.

(٣) ابن تغري بردي: المنهل ٢ /٣٠٦.

الناصر محمد – كما بين البحث – ، فقد استقرت أقدامه في نظر الجيش، فاستحوذ عليه ثنتين وعشرين سنة، ونال من الوجاهة والمكانة عند سلطانه ما لم ينله غيره من معاصريه، ومن ثم كانت هناك حالة من التنافس الشديد بين الرجلين [١].

وكانت دلائل هذا التنافر بين الرجلين واضحة للعيان في مجلس السلطان، فإذا ما جلس الفخر لمباشرة بعض مهام عمله أعرض أرغون وجهه عنه، وأدار ظهره له، الأمر الذي عده الفخر إهانة له وحطاً من مقداره، وزاد من حدة العداء بين الرجلين سعي أرغون لتشويه صورة الفخر والتقليل من مكانته عند الناصر محمد، الأمر الذي أغضب الفخر، وغل يده أحياناً عن القيام ببعض شؤون عمله على الوجه المرجو، خوفاً من تربص غريمه أرغون به[٢]، لذلك سعى كلاهما لتشويه صورة الآخر، والنيل منه عند السلطان الناصر محمد، ومحاولة إقصائه عن وظيفته ما استطاع إلى ذلك سبيلاً.

---

(١) المقريزي: المقفى ٦ /٥١٧.

(٢) الصفدي: الوافي ٤ /٢٣٩، المقريزي : المقفى ٢ /٢١، ٦ / ٥١٧ ، السلوك ٤ / ١١٤ ، ابن حجر: الدرر ٥ /٣٩٩ .

٣ – موقف أرغون من كريم الدين الكبير.

جمعت الصداقة بين الفخر وكريم الدين الكبير منذ أن تشفع الأول منهما للثاني عند السلطان الناصرمحمد للعفو[١]عنه، وذلك بعد عودته إلى سلطنته الثالثة سنة ٧٠٩ هـ/١٣٠٩م، ومنذ تلك الواقعة صار الفخر وكريم الدين وثيقي الصلة، يصعدان معاً إلى القلعة، للخدمة بين يدي السلطان، ويتزاوران ويأكلان معاً في بيتيهما، ولما تنكر السلطان لكريم الدين الكبير، لتفاقم نفوذه في الدولة، وعزم على التخلص منه، كلف النائب أرغون القيام بذلك، فقبض عليه، وفرض الحوطة على بيوته وثرواته، وذلك في ربيع الآخر سنة ٧٢٣هـ/أبريل١٣٢٣م[٢]، ولم ينس الفخر ما وقع لصديقه كريم الدين على يد النائب أرغون، بل ظل عالقاً بذهنه، ودفعه للمكر لنيل وتره من النائب أرغون، وإن لم يستطع ذلك فلا

---

(١) كان السلطان الناصر محمد شديد الحنق على كريم الدين الكبير؛ لأنه كان يقتر عليه في النفقة، حينما كان الناصر في حجر الأمير بيبرس الجاشنكير، وكان كريم الدين كاتباً له، فلم يكن يُصرف للناصر محمد ما يريد من الطعام إلا بتوقيع من كريم الدين الكبير، وهو الأمر الذي أغضب الناصر منه، ولما هرب بيبرس وعاد الناصر محمد لسلطنته الثالثة، أراد القبض على كريم الدين ونيل وتره منه، فتوسط له الأمير طغاي والفخر حتى عفا السلطان عنه، وأخذا له أماناً على مال فُرض عليه. الصفدي: الوافي ١٩ /٦٦، ابن حجر: الدرر ٤٧٧، ٤٧٨ .

(٢) الصفدي: الوافي ١٩ /٦٦، ٧٠، ابن حجر: الدرر ١ /٤٧٧، ٤٧٨، ٣ /٢٠٣، ٢٠٥ .

يقع على الأقل في قبضته، حتى لا يحل به مثلما حل بكريم الدين من الإهانة والمصادرة ثم القتل.

إذن كانت العداوة مستحكمة بين الرجلين أرغون النائب والفخر ناظر الجيش؛ لصراعهما على النفوذ والمكانة في الدولة، ورغبة كليهما في الإطاحة بغريمه من منصبه، لذلك اجتهد الفخر في الإيقاع بأرغون عند السلطان؛ ليعزله من نيابة السلطنة، منتهزاً فرصة خروجه للحج في شوال سنة ٧٢٦هـ/أغسطس١٣٢٦م، فشرع في إغراء الناصر محمد بنائبه، وإيغار صدره عليه، وغيبته والنيل منه، وتخويف السلطان منه، بذريعة أن سابقيه من السلاطين لم يدخل عليهم الشر أوالقتل أو العزل إلا من نوابهم، وضرب له أمثلة[١]واقعة قريبة العهد لما حدث لبعض أسلافه من

(١) كقتل النائب بيدرا لخليل بن قلاوون سنة ٦٩٣ هـ /١٢٩٣م، وتآمر حسام الدين لاجين نائب السلطنة على العادل كتبغا سنة ٦٩٦ هـ /١٢٩٦م، حتى اضطره إلى الفرار والتنازل له عن السلطنة، وإفساد منكتومر سلطنة حسام الدين لاجين بعد أن راك البلاد، واختص هو ومماليكه بالأراضي الخصبة، مما أغضب الأمراء فقتلوهما سنة ٦٩٨هـ/١٢٩٨ م، وإجبار الأميرين بيبرس الجاشنكير وسلار الناصر محمد بن قلاوون ذاته على اعتزال السلطنة والإقامة في الكرك سنة ٧٠٨ هـ/١٣٠٨م، وإفساد النائب سلار بسوء تصرفاته سلطنة بيبرس الجاشنكير، مما مكن الناصر محمد بن قلاوون من العودة لسلطنته الثالثة سنة ٧٠٩ هـ/١٣٠٩م. الصفدي: أعيان العصر ٥ /٥٦ ، الوافي ٤ /٢٣٩، المقريزي: المقفى ٢ /٢١، السلوك ٣ /٩٦، سعيد عبد الفتاح عاشور: العصر المماليكيى فى مصر والشام ص ١٠٨ – ١٢٦، مكتبة الأنجلو المصرية، ط ٣، ١٩٩٤

نوابهم، فلقيت هذه الأقوال آذاناً مصغية من الناصر محمد، وتوجس من النائب أرغون خيفة، وتحركت لديه كوامن وهواجس كان الفخر قد زرعها من قبل في قلبه نحو نائبه، ولما آتت جهود الفخر أكلها أشار على السلطان الناصر بعزل أرغون من منصبه وتعطيل النيابة (١).

ومما ساعد الفخر على نيل وتره من غريمه أرغون، أن الناصر محمد نفسه تصاعدت لديه الهواجس من نائبه بعد خروجه إلى الحج، حيث أمره السلطان بالقبض على مهنأ(٢)بن عيسى أمير عرب الشام، الذي عزم على الحج في العام نفسه، فاستعد نائب السلطنة لذلك، وخرج من القاهرة في شوال سنة ٧٢٦ هـ / أغسطس١٣٢٦م نحو الحجاز، بيد أن الخبر بلغ أمير العرب

(١) الصفدي: الوافي ٤ /٢٣٩، ٨ /٢٣٢ ، المقريزي: المقفى ٢ /٢١، ٦ /٥١٧، ابن حجر: الدرر ٥ /٣٩٩ .

(٢) مهنأ بن عيسى بن مهنأ، أمير آل فضل في بلاد الشام، ولد بعد سنة ٦٥٠ هـ/١٢٥٠م، وتأمّر على العرب بعد أبيه في سلطنة المنصور قلاوون، وخدم مهنأ الناصر محمد لما اعتزل السلطنة ونزل الكرك سنة ٧٠٨ هـ/١٣٠٨م، ثم تحالف مهنأ مع نائب الشام قراسنقر ضد الناصر محمد فغضب عليهما، فاتصلا بأبي سعيد بن خربندا الإيلخاني في بلاد العراق فأكرمهما، ومنح مهنأ حكم البلاد الفراتية، مما أغضب الناصر عليه، فنقل إمرة العرب منه لأخيه فضل بن عيسى، واجتهد الناصر في الإغداق على إخوة مهنأ ليقنعوه بالمثول بين يديه، بيد أنه كان يسوف في الحضور، ثم مثل بين يدي السلطان سنة ٧٣٣هـ/١٣٣٣م، فأكرمه وأعاده للإمرة على قومه، وظل على ذلك حتى توفي سنة ٧٣٥هـ/١٣٣٤م. ابن حجر: الدرر ٦ /١٣٣ – ١٣٥ .

فتخلف عن الحج، ووشى الفخر بالأمير أرغون عند الناصر محمد، واتهمه بأنه هو الذي أرسل إلى مهنأ بن عيسى يحذره من الخروج للحج، حتى لا يضطر للقبض عليه، ولاقت هذه الوشايات آذاناً مصغية من الناصر محمد، وارتاب في نية أرغون مما نُسب إليه، وعزم على القبض عليه فور رجوعه من الحج وعزله(١)،خوفاً من تآمره مع مهنأ ضده للإطاحة به من السلطنة، كما حدث لبعض أسلافه من السلاطين على يد نوابهم

أثمرت خطة الفخر في الإيقاع بالنائب أرغون عند الناصرمحمد، الذي اتخذ قراراً بعزله فور عودته من الحج، وما أن صعد أرغون إلى القلعة في المحرم سنة ٧٢٧ هـ/نوفمبر١٣٢٦م، حتى أمر السلطان بالقبض عليه بحجج وذرائع واهية، لم يسع أرغون حيالها إلا التزام الصمت وطلب العفو من الناصر، الذي تظاهر بمنحه إياه، وأمر بخروجه إلى حلب نائباً، صحبة الأمير أيتمش المحمدي(٢)،

(١) المقريزي: المقفى ٢ /٢٠، ابن حجر: الدرر ١ /٤١٧، ٦ /١٣٣ – ١٣٥ .

(٢) أيتمش المحمدي: سيف الدين، أحد أمراء الطبلخاناة بدمشق، كانت له علاقة قوية بنائبها تنكز، وله عنده منزلة كبيرة، فكان يكرمه وينعم عليه، مات سنة ٧٣٣ هـ/١٣٣٣م. الصفدي: أعيان العصر ١ /٦٤٧، ابن حجر: الدرر ١ /٥٠٦ .

بدلاً من أميرها الّطَنُبُغَا [١] الناصري [٢].

ولم يكتف الفخر بما نال النائب أرغون من العزل فحسب، بل حرص على استمرار عداوة السلطان له ما بقي حياً، خوفاً من إعادته إلى النيابة كرة أخرى، لذلك لما سأل الناصر محمد الأمير أيتمش بعد عودته من حلب عن موقف أرغون من عزله وتعيينه نائباً لحلب، وهل هو راضٍ أم متسخط ؟، أجابه بأنه راض كل الرضى عما آل إليه أمره، مما أوجس الفخر خيفة من إعادة الناصر له، فأقسم لأيتمش أن أرغون لو أقام في النيابة شهراً واحداً، ما رأيت السلطان على كرسي الحكم هذا، فأشعل ذلك جذوة الغضب عند الناصر محمد، فأمر على الفور بمصادرة كل ثروات

(١) الّطَنُبُغَا: علاء الدين الناصري الحاجب، ولاه الناصر نيابة حلب سنة ٧١٤ هـ/١٣١٤م، فساسها أحسن سياسة، وظل عليها حتى عُزل بأرغون الناصري سنة ٧٢٧ هـ/١٣٢٧م، وعاد إلى مصر ثم نُقل لنيابة حلب بعد موت أرغون سنة ٧٣١ هـ/١٣٣١م، ولما نكب السلطان الناصر محمد نائب الشام تنكز، استقر بالطنبغا مكانه سنة ٧٤١ هـ/١٣٤٠م، ثم خاض الطنبغا في الصراعات التي دارات بين أمراء المماليك في عهد أبناء الناصر محمد، فُقبض عليه سنة ٧٤٢ هـ/١٣٤١م وحُبس في الأسكندرية ثم قتل فيها.الصفدي: الوافي ٩ /٢٠٩، ٢١٠، ابن حجر: الدرر ١ /٤٨٦، ٤٨٧ .

(٢) النويري: نهاية الأرب ٣٣ /٢٢٠، ٢١٩، الصفدي: الوافي ٨ /٢٣٢ ، المقريزي: السلوك ٣ /٩٥، ٩٦.

أرغون وأملاكه في مصر [١].

ومما هو جدير بالذكر في هذا الصدد الإشارة إلى أن الأمير أرغون يكاد أن يكون بريئاً من تهمة التآمر علي الناصر محمد، إذ لو صحت نسبة الخيانة إليه، لما اكتفى السلطان بعزله فقط من منصبه، بل لحلت عليه النقمة، ووسده السلطان الثرى، بيد أن الاكتفاء بعزله من نيابة السلطنة، ثم تنصيبه نائباً علي حلب ثاني كبرى نيابات الشام، يؤكد براءته مما نُسب إليه وحاكه الفخر له، ومما يدلك على هذا، أن الناصر محمد لما استشعر جرم ما اقترفه في حق أرغون من العزل وإخراجه إلى الشام، استدعاه إلى مصر في سنة ٧٢٩ هـ/١٣٢٩م، وأحسن استقباله وضيافته، وعزاه في فقد ولده محمد، وخلع عليه حين قدومه وعند رجوعه، ورده إلى نيابته رداً جميلاً [٢].

وكيفما كان الأمر فقد نجح الفخر بدهائه في الإطاحة بغريمه أرغون من نيابة السلطنة، وتعطيلها، وانفرد الفخر بالمهام

(١) الصفدي: الوافي ٨ /٢٣٢ ، المقريزي: المقفى ٢ /٢١، ٢٢، ابن حجر: الدرر ٥ /٣٩٨.

(٢) الصفدي: الوافي ٨ /٢٣٢، المقريزي: المقفى ٢ /٢٢.

التي كان يضطلع بها النائب أرغون، وصار ناظر الجيش يراجع السلطان مباشرة في شؤون ديوانه، وظل ذلك كذلك حتي بعد أن عادت وظيفة نيابة السلطنة [١] في عهد أبي بكر[٢]بن الناصر محمد سنة ٧٤٢هـ/١٣٤١م، حيث استتاب حموه الأمير طقزدمر[٣] طقزدمر[٣] الحموي[٤]. وتلك كانت مكيدة الفخر في الإطاحة بأرغون الناصري وتعطيل النيابة، وأما دهاؤه في عزل الوزير مغلطاي الجمالي وتعطيل الوزارة فسيعرض له الباحث فيما يلي:

(١) المقريزي: المواعظ ٣ /٣٧٥.

(٢) أبو بكر بن الناصر محمد بن قلاوون، تولى السلطنة في ذي الحجة سنة ٧٤١ هـ /١٣٤٠م، بعد موت أبيه، ولم يكن محمود السيرة، فتمالأ كبار الأمراء على خلعه، ونصبوا مكانه أخاه الأشرف علاء الدين كجك، واعتقل المنصور في قوص هو وثلاثة من إخوته، ثم قام الأمير قوصون بقتلهم جميعا في سنة ٧٤٢ هـ /١٣٤١م. الصفدي: الوافي ١٠ /١٥٧

(٣) ظقزدمر الحموي الناصري، كان من مماليك الناصر محمد، وحظي بمكانة عنده فجعله ساقياً، ثم رقاه في المناصب حتى صار أمير مائة مقدم ألف، ثم أمير مجلس، وتزوج أبو بكر وإسماعيل ابني الناصر من ابنتي ظقزدمر حتى صار من أهم الأمراء، وأوصي الناصر بأن يتولى طقزدمر نيابة السلطنة بعد وفاته فتولاها، ثم تعاقب طقزدمر بعد عزله من النيابة في حكم نيابات حماة وحلب ودمشق، حتى عاد إلى القاهرة مريضاً، توفي سنة٧٤٦هـ/١٣٤٥م. الصفدي: الوافي ١٦ /٢٦٧، ٢٦٨، ابن تغري بردي: النجوم ١٠ /١٤٢.

(٤) الصفدي: الوافي ١٠ /١٥٧.

ثانياً:

دور الفخر في عزل الوزير مغلطاي الجمالي وتعطيل الوزارة.

بعد أن تخلص الفخر ناظر الجيش من أشد خصومه خطورة، وهو النائب أرغون الناصري، وعطل الناصر نيابة السلطنة، ولى الفخر أنظاره نحو رجل آخر قد ينازعه في مكانته وهو الأمير مغلطاي الجمالي، الذي كان قد تولى الوزارة خلفاً لعبدالله[١]بن تاج الرئاسة سنة ٧٢٤ هـ/١٣٢٤م بعد استعفائه منها؛ لعجزه عن الاضطلاع بمهامها [٢]، وبالرغم من أن الوزارة في العصر المملوكي قد تقلصت مكانتها، وفقد الوزير جل صلاحياته؛ لتقدم رتبة النيابة عليها، ولاستحداث الناصر محمد لديوان الخاص السلطاني[٣]، إلا أن هذا الضعف كان يزول إذا ما تولى الوزارة

---

(١) عبد الله بن تاج الرئاسة، أمين الدين ابن الغنام القبطي، استسلمه الأمير بيبرس الجاشنكير، وولى استيفاء الدولة والوزارة ثلاث مرات، وهو يتأسف على وظيفة الاستيفاء، واستقال في المرة الثالثة، ثم تولى نظر الدولة في مصر، ونظر النظار في دمشق، وظل فيها حتى سنة ٧٤٠ هـ /١٣٣٩م، ثم طُلب إلى القاهرة بعد القبض على النشو ليتولى الوزارة، ولكن السلطان قبض عليه وعاقبه حتى مات في سنة ٧٤١ هـ /١٣٤٠ م. الصفدي: الوافي ١٧/٥٠ – ٥٢، ابن حجر: الدرر الكامنة فى أعيان المائة الثامنة ٣ /٢٣، ٢٤.

(٢) الصفدي: الوافي ١٧ /٥١، المقريزي: السلوك ٣ /١٦٣.

(٣) القلقشندي: صبح الأعشى ٤ /٢٨، ٣٠، ١١ /٢٦٥، ٣١٠، المقريزي: المواعظ ٣ /٣٨٩.

رجل من أرباب السيف كالأمير مغلطاي الجمالي، الذي جمع ولأول مرة في تاريخ دولة المماليك الأولى بين الوزارة و الأستادارية، " **فلم يجتمع ذلك قبله لغيره** " [١]، فاستغلظ عود مغلطاي واتسع نفوذه؛ للمزاوجة بين صلاحيات الأستادارية والوزارة التي استعادت بعض هيبتها، وهذا ما حدا بالمقريزي[٢] إلى القول: " **ما رأينا الوزارة بعد انحطاط رتبتها يرتفع قدر متوليها إلا إذا أضيفت إلى الأستادارية** ".

كما حظي مغلطاي بمكانة مرموقة عند سلطانه الناصر محمد حتى إنه " **حكمه في جميع المملكة** "[٣]، وهو الأمر الذي أثار حسد معاصريه ، وخاصة الفخر ناظر الجيش، بيد أنه لم يبادر بعداوته حتى تخلص ممن هو أشد منه خطورة، وهو النائب أرغون الناصري سنة ٧٢٧ هـ/١٣٢٧م، ولما نال الفخر وتره من عدوه الأول ولى وجهه صوب غريمه الثاني، وسعى للإطاحة به من الوزارة، ليس هذا فحسب، بل والعمل على تعطيلها كما فعل آنفاً مع نيابة السلطنة.

---

(١) أعيان العصر ٥ /٤٣١.

(٢) المواعظ ٣ /٣٨٩.

(٣) المقريزي: السلوك ٣ /١٦٣.

ولم يكن عزل الناصر محمد للوزير مغلطاي في شوال سنة ٧٢٩هـ/يولية ١٣٢٩م، وتعطيل الوزارة، وليد حادث أسهم فيه الفخر بدور عارض، بل كانت هناك محاولات دؤوبة من الفخر للإطاحة بغريمه مغلطاي من الوزارة وتعطيلها؛ لينفرد الفخر بجل مهامه، ويصير هو المعول عليه في إدارة شؤون الدولة، وشرع الفخر في التدبير للإيقاع بالوزير مغلطاي منذ ذي الحجة سنة ٧٢٨هـ/أكتوبر ١٣٢٨م، منتهزاً فرصة غضب السلطان عليه، بعد أن رُفعت إليه قصة[١] مجهولة المصدر، تتهمه فيها بسوء حكمه، والحط عليه بسبب تولية الجمالي الوزارة، وهو رجل أمي لا يحسن التصرف في شؤون الأموال، وإنما يستبد بذلك أرباب الدواوين، الذين يأكلون أموال السلطنة ويحيلون أمرها على الوزير، منهزين فرصة كونه أمياً، كما اتهم كاتب القصة الناصر محمد بأنه أضاع أمانة الحكم، وفرط في أموال الدولة، وهو ما لم يفعله أحد من

(١) القصص: جمع قصة، وهي الطلب، أو الالتماس الذي يرفعه صاحب الشكوى أو الحاجة إلى السلطان عن طريق موظف خاص اسمه قصة دار، وقد تكون القصة خاصة بطلب إقطاع، أو تجديده، أو إرجاعه، وفي مثل هذه الحالات تعرض القصة على ناظر الجهة المختصة قبل عرضها على السلطان، البقلي: التعريف ص ٢٧٤.

نظرائه السابقين [١].

أنزعج الناصر محمد عند قراءته لهذه القصة انزعاجاً كبيراً، وعرض أمرها على الفخر ناظر الجيش، الذي انتهز هذه الفرصة للإيقاع بالوزير مغلطاي وعزله من منصبه، حيث اقترح الفخر على السلطان نزع بعض صلاحيات الوزير ومنحها لصديقه التاج إسحاق[٢]بن القماط ناظر الخاص، فوافق على ذلك، ليس هذا فحسب، بل واشتد السلطان في نقده للوزير مغلطاي، فاتهمه بأن رجال الدواوين يلعبون به، ويأكلون أموال الدولة من وراء ظهره، وتدخل الأمير بكتمر[٣]الساقي الذي كان من أقرب المقربين

---

(١) المقريزي: السلوك ٣ /١١٣. المواعظ ٤ /٢٤٧.

(٢) إسحاق بن عبد الكريم القبطي تاج الدين، أسلم وخدم في الديوان، وباشر الاستيفاء، ثم تولى نظر الدولة في سنة ٧١٧هـ /١٣١٧م، وعلت منزلته في أيام كريم الدين الكبير، ثم تولى مكانه نظر الخاص سنة ٧٢٣هـ /١٣٢٣م، فساس أموره أحسن سياسة؛ وظل في منصبه حتى توفى سنة ٧٣١هـ/١٣٣٠م، فخلفه ابنه موسى على نظر الخاص. الصفدي: أعيان العصر ٤٨٧/١، ٤٨٨، ابن حجر: الدرر الكامنة ٤٢٥/١، ٢٤٠/٣، ٢٤١.

(٣) بكتمر الساقي: كان من مماليك المظفر بيبرس، ولما عاد الناصر محمد لسلطنته الثالثة سنة ٧٠٩ هـ/١٣٠٩م جعل بكتمر ساقياً له فصار من أقرب المقربين له، وزوج الناصر بكتمر من جاريته التي أنجبت له ولده أحمد، كما زوج بكتمر ابنته لآنوك بن الناصر، وهاب المماليك بكتمر، وتقربوا له لحسن علاقته بالسلطان، الذي لم يكن يفارقه، وكان بكتمر ممن يحول بين الناصر ومظالمه، وحج مع السلطان، ومات في طريق العودة سنة ٧٣٦ هـ/١٣٣٥م.المقريزي: المقفى ٤٦٨ – ٤٧٦، ابن حجر: الدرر ٢ /٢١ – ٢٣.

للسلطان، ويحول بينه وبين كثير من المظالم، واعتذر عما نسب لمغلطاي لكون أمياً [١].

كما اتخذ الناصر محمد من الإجراءات ما يكفل ضبط الموارد المالية للدولة، والحيلولة دون ضياعها ونهبها، فأمر الوزير مغلطاي ومساعده شمس الدين غبريال[٢]ناظر الدولة[٣]، والتاج إسحاق ناظر الخاص، والمجد[٤]بن لقينة

---

(١) المقريزي: السلوك ٣ /١١٣، المقفي ٢ /٤٧٣، ابن حجر: الدرر ٢ /٢٢.

(٢) **غبر**يال: عبد الله بن الصنيعة، شمس الدين المصري القبطي، تدرج في سلك الوظائف الديوانية، حتى ولاه تنكز نائب الشام الوزارة بدمشق، فطالت أيامه ونالته السعادة في مباشرته لها، وكان وثيق الصلة بكريم الدين الكبير، كما كانت له علاقات جيدة بكبار أمراء مصر، ثم تولى نظر الدولة في مصر، وعاد وتولى الوزارة في دمشق حتى سنة ٧٣٢هـ /١٣٣٢م، ثم تنكر له الناصر محمد بن قلاوون بوشاية النشو فيه، فصادره حيا واستخلص منه أموالاً جمة، توفى سنة ٧٣٥هـ/١٣٣٤م. الصفدي: الوافي ١٧ /١١٤، ١١٥ ابن حجر: الدرر ٣ /٣٦ – ٣٨.

(٣) ناظر الدولة: من وظائف أرباب القلم، يعبر عنها في مصطلحات الدواوين المملوكية بالصحبة الشريفة، ومهام صاحبها التحدث مع الوزير في كل ما يتحدث فيه، والمشاركة في كل ما يكتبه، ويوقع في كل ما يوقع فيه الوزير تبعاً له، فإن كان الوزير من أرباب السيف كان ناظر الدولة هو المتحدث في أمر الحسابات وما يتعلق بها، والوزير يقتصر على النظر والتنفيذ. القلقشندي: صبح الأعشى ٤/٢٩، دهمان: معجم الألفاظ التاريخية ص١٥٠.

(٤) المجد بن لقينة: إبراهيم، كان نصرانياً ثم أسلم، وتنقل في الأعمال الديوانية، حتى ولي نظر الدولة رفيقاً لمغلطاي الجمالي الوزير سنة ٧٢٧ هـ/١٣٢٧م، وعزل سنة ٧٢٩ هـ/١٣٢٩م بإبراهيم بن التاج إسحاق، ومات معزولاً بعدما صُودر سنة ٧٣١ هـ/١٣٣١م. المقريزي: المقفي ١ /٢٥٢، ٢٥٣، ابن حجر: الدرر ١ /٥٩.

ناظر الدواوين[١]، بأن يرفعوا إليه في نهاية كل يوم سجلات الأموال، وما فيها من صادر وواردة؛ ليبت السلطان فيها بنفسه، فيقر ما يشاء ويبطل ما يريد، ولا يصرف شيء من الأموال إلا بأمر الناصر نفسه، كما أمر بحمل مال الجيزة الذي كان تحت سلطة الوزير إلى خزانة الخاص السلطاني، ولا يصرف منه شيء لشؤون الوزارة [٢].

كان لهذه الإجراءات أثرها في ضبط موارد الدولة المالية، والحد من النفقات غير المبررة، وتجاوز الوزير مغلطاي هذه الأزمة التي كادت أن تعصف به، بيد أنه فقد جل صلاحياته لصالح معاونيه، الذين أمرهم السلطان بمشاركته في شؤون عمله، ووضع الوزير مغلطاي ثقته في المجد بن لقينة ناظر الدواوين والصحبة[٣]

(١) ناظر الدواوين: هو الذي يعبر عنه بناظر الدولة، ويشارك الوزير في التصرف والنظر في الأمور المالية وأرزاق أصحاب القلم من الموظفين خاصة، ويسمى أحياناً ناظر النظار أو الصاحب الشريف ومقره ديوان النظر. القلقشندي: صبح الأعشى ٤ /٣١، البقلي: التعريف ص ٣٤٣.

(٢) المقريزي: السلوك ٣ /١١٣. المواعظ ٤ /٢٤٧، ابن حجر: الدرر ٢ /٢٢.

(٣) نظر الصحبة: مهام صاحبها الإشراف على ديوان من أرفع دوواوين الأموال وفيه تثبت التواقيع والمراسيم السلطانية، وصاحبه يتحدث فى جميع المملكة مصراً وشاماً، ويكتب مراسيم يعلم عليها السلطان، و يشارك الوزير فى مهامه، ويوصي بإلزام الكتاب بما يلزمهم من الأعمال وتحريرها وتقدير المساحات وتمييز قيم بعضها على بعض. القلقشندى: صبح الأعشى ٤ /٢٩، البقلي: التعريف ص ٣١١.

والبيوت[١] ، ومكن له في القيام بمهام عمله، وجعله يستبد بكثير من شؤون الوزارة؛ لمواجهة تصاعد نفوذ التاج إسحاق ناظر الخاص وصديق الفخر، فعلا شأن ابن لقينة، وارتفع صيته في الدولة، حتى صار أمر الوزارة ومهامها منوطاً به [٢].

أثار هذا الأمر سخط الفخر وحليفه التاج إسحاق، فسعيا بعد عدة أشهر للنيل من المجد بن لقينة ومن وزيره مغلطاي، وانتهزا فرصة قلة الأموال الواردة إلى خزانة الدولة، وتوقف أحوالها المالية، وعجزها عن دفع جوامك[٣]المماليك، وكتبا إلى السلطان مرافعات في الوزير الجمالي، يتهماه فيها بالاستيلاء على أموال كثيرة لنفسه، مما هو مخصص للسلطان من حواصل الجيزة، تلك التي أمر السلطان بجعلها له، وكذلك من أموال الخاص السلطاني، منتهزين فرصة عزل السلطان للمجد بن لقينة في رجب سنة ٧٢٩ هـ/١٢٢٩م من وظائفه كافة، وهو من أخص أعوان الوزير مغلطاي، وكذلك تعيين الناصر محمد لأبناء التاج إسحاق

(١) نظر البيوت والحاشية: مهام صاحبها مشاركة الأستادار – وهو من العسكريين – في إدارة شؤون بيوت السلطان كلها، من المطابخ والشراب خانة والحاشية والغلمان. القلقشندي: صبح الأعشى ٤ /٣١، ٣٢، البقلي: التعريف ص ٣٤٢.

(٢) اليوسفي: نزهة الناظر ص ٤٤٢، المقريزي: السلوك ٣ /١١٩. المواعظ ٤ /٢٤٧، ٢٤٨.

(٣) جوامك: جمع جامكية، وهى رواتب العساكر والموظفين في الدولة. دهمان: معجم الألفاظ ص ٥٦.

في وظائف مهمة في الدولة، حيث تولى علم الدين إبراهيم نظر الدولة، وصار مشاركاً للوزير مغلطاي في النظر في شؤون الوزارة،

وأخيه شمس الدين موسى[١] نظر الخزانة[٢]، خلفاً لأخيه علم الدين[٣].

نجحت بذلك مساعي الفخر وصديقه التاج إسحاق في تأليب السلطان الناصر محمد على الوزير مغلطاي وإيغار صدره عليه، فانتهز الفخر هذه الفرصة السانحة وأغرى السلطان بعزل الجمالي

---

(١) شمس الدين موسى بن إسحاق القبطي المصري، عمل بالكتابة كأبيه، ولما توفى أبوه استقر مكانه في نظر الخاص، ثم تآمر عليه النشو حتي عزله وتولى الخاص مكانه، ثم أقر السلطان موسى في نظر الجيش، ولكن النشو أوقع به عند السلطان فعزله وسجنه، وظل كذلك حتى قبض السلطان على النشو في سنة ٧٤٠هـ/١٣٣٩م، فأطلق السلطان سراحه، وعاد لتقلد الوظائف المختلفة في مصر والشام حتى توفى سنة ٧٧١هـ/١٣٦٩م ابن حجر: الدرر ١٣٨/٦، ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة ١١٠/١١ – ١١٢.

(٢) نظر الخزانة: مهام صاحبها الإشرف على توزيع الخلع تلك التي يخلعها السلطان على موظفي السلطنة في المناسبات المختلفة، أو توزيع الهدايا التي تصل إليها. القلقشندى: صبح الأعشى ٤ /٣١.

(٣) اليوسفي: نزهة الناظر ص ٤٤٢، المقريزي: السلوك ٣ /١١٩. المواعظ ٤ /٢٤٧، ٢٤٨.

من الوزارة، خاصة بعد تقليص صلاحياته ونفوذه لصالح صديقه التاج إسحاق ناظر الخاص وأولاده، وآتت جهود الفخر أكلها، فأرسل السلطان الأمير أيتمش المحمدي إلى الجيزة للكشف عما نسب للوزير مغلطاي من الاستيلاء على أموال الخاص السلطاني، ليس هذا فحسب، بل هم بالقبض على الوزير مغلطاي ومعاقبته ومصادرة أمواله، لولا تشفع الأمير بكتمر الساقي فيه، فعفى الناصر محمد عنه، واكتفي بعزله من الوزارة، كما أمر السلطان بالقبض على كثير من أعوان الجمالي ومعاقبتهم ومصادرة أموالهم، وذلك في شوال سنة ٧٢٩ هـ/١٢٢٩م [١].

لم يكتف الفخر بما حاق بالأمير مغلطاي من عزله من الوزارة، وغضب السلطان عليه فحسب، بل أراد الفخر أن يستأثر بالنفوذ والمكانة في الدولة، فأوحى إلى السلطان بألا يستوزر أحداً بعد الجمالي، فعطل السلطان الوزارة من يومئذ، وظلت شاغرة منذ ذلك الحين حتى أعادها السلطان المنصور أبو بكر بن الناصر

(١) اليوسفي: نزهة الناظر ص ٤٤٢، المقريزي: السلوك ٣ /١١٣، ١١٩. المواعظ ٤ /٢٤٧، ٢٤٨.

محمد فى سنة ٧٤٢هـ /١٣٤١م، باستوزاره نجم الدين محمود[١] وزير بغداد [٢].

وهكذا تمكن الفخر بدهائه من التدبير للايقاع بالوزير مغلطاي، بنزع بعض صلاحياته أولاً، ثم اتهامه بالاستيلاء على أموال السلطنة، وأخيراً الإجهاز عليه بعزله من الوزارة وتعطيلها، ونقل جل صلاحياته ومهامه إليه حتى صار الفخر هو الرجل الأول، والمعول عليه في الدولة المملوكية بعد سلطانه الناصر محمد بن قلاوون، وذلك بعد عزل نائب السلطنة والوزير وتعطيل منصبيهما [٣]، وهذا ما حدا بالمقريزي إلى القول: [٤]" **صارت أمور المملكة كلها من الأموال والجيوش وغيرها متعلقة به** ".

(١) نجم الدين محمود بن شروين، كان وزيراً في بغداد ثم قدم على الناصر محمد بن قلاوون سنة ٧٣٨ هـ/١٣٣٧ م، وقدم له هدية ثمينة، فأكرمه وأعطاه تقدمة ألف، وأوصى قبل وفاته أن يستعان به وزيراً من بعده، فاستوزر فى سلطنة المنصور أبى بكر، وظل فى الوزارة حتى سلطنة الصالح إسماعيل، ثم عزل فى عهد الكامل شعبان، وأعاده المظفر حاجى وظل وزيراً حتى سنة ٧٤٨ هـ/١٣٤٧م، فأخرج إلى بلاد الشام، ثم أرسل السلطان من قتله وهو فى غزة. الصفدي: الوافي ٢٥ /٢٠٥، ابن حجر: الدرر ٦ /٩٠، ٩١.

(٢) الصفدي: الوافي ٤ /٢٣٩، المقريزي: السلوك ٣ /١١٩، السيوطي: حسن المحاضرة ٢/٢٢٤.

(٣) الصفدي: الوافي ٤ /٢٣٩، المقريزي: المقفى ٦ /٥١٧.

(٤) المقفى ٦ /٥١٧.

ومما هو جدير بالذكر في هذا الصدد الإشارة إلى أن الفخر ظل حتى أخريات حياته، حريصاً على ألا ينازعه أحد في وظيفته أو مكانته عند سلطانه الناصر محمد، حتى ولو كان من أقرب المقربين إليه، كأولاد التاج إسحاق الذين سعى لهم الفخر عند السلطان، لينعم عليهم بوظائف بعد موت أبيهم في ربيع الآخر سنة ٧٣١هـ/يناير ١٣٣١م، فأقر الناصر محمد موسى في نظر الخاص خلفاً لأبيه، وإبراهيم في نظر الدولة [١].

ولما مرض الفخر في شهر رجب سنة ٧٣٢هـ/مارس ١٣٣٢م، وتخلف عن الحضور بين يدي السلطان أياما عدة، خاف على منصبه من أن يناله أحد غيره، فتحامل على نفسه وصعد إلى القلعة وهو يعاني من شدة المرض لمباشرة مهام عمله، فأشفق السلطان عليه، وطلب منه العودة إلى بيته، وألا يرهق نفسه بالعمل حتى يشفى من مرضه، فاغتنم موسى بن التاج إسحاق هذه الواقعة؛ ليوقع بالفخر عند الناصر محمد، فيعزله ويخلفه في وظيفته، فأخبر السلطان أن الفخر كُف بصره، وأصبح لا يصلح لنظر الجيش حتى ولو تعافى من مرضه[٢].

ولما ترامت هذه الأخبار إلى الفخر، أسرع بالصعود لمقابلة

(١) المقريزي: السلوك ٣ /١٤١.

(٢) اليوسفي: نزهة الناظر ص ٤٤٦، المقريزي: السلوك ٣ /١٥٥.

السلطان وهو يعاني من شدة المرض، ليحذره بأن أولاد التاج إسحاق تواصوا على أكل أموال الدولة، وبالغ الفخر في الحط عليهم، وطلب من الناصر محمد ألا يأمنهم، ولا يعهد إليهم بشؤون أمواله، ولا يولي منهم أحداً في وظائف مهمة، فوعده السلطان خيراً، بيد أنه لم يكترث بوعده، وضرب عرض الحائط به بعد وفاة الفخر، فأقر موسى بن التاج إسحاق ناظراً للجيش خلفاً للفخر(١).

وإن دلت هذه الواقعة على شيء، فإنها تدل على دهاء الفخر، وشدة حرصه على مكانته ووظيفته حتى وهو في أخريات حياته، وشدة عدائه لمن يحاول أن ينال مكانته أو ظيفته حتى ولو كان من أقرب المقربين إليه، وهكذا طويت صفحة الفخر ناظر الجيش، وانتقل من الأحداث والتاريخ إلى كتبه؛ لتكون في قصته عبرة لأولي الألباب.

(١) اليوسفي: نزهة الناظر ص ٤٤٦، ٤٤٧، ابن أيبك: كنز الدرر ٩ /٣٦٢، المقريزي: المقفى ٦ /٥١٩، ٥٢٠.

خاتمة

بعد هذا الاستعراض لموضوع " **الفخر ناظر الجيش المملوكي ودوره في تعطيل نيابة السلطنة والوزارة ٦٥٩-٧٣٢هـ/١٢٦١- ١٣٣٢م**"، نستطيع أن نلخص أهم نتائج هذا البحث فيما يلى :

أولاً: أثبت الفخر جدارة في القيام بمهام عمله كناظر للجيش، الأمر الذي أثار حقد بعض معاصريه من الأمراء، فأوقعوا به عند السلطان الناصر محمد بن قلاوون فعزله، بيد أن من خلفه في وظيفته فشل في الاضطلاع بشؤون عمله على الوجه المرجو، مما دفع السلطان إلى إعادة الفخر لوظيفته، ليس هذا فحسب، بل وأدناه منه وخصه بكثير من الصلاحيات، وأقره في منصبه ثنتين وعشرين سنة، فنال الفخر مكانة مرموقة بين معاصريه، وكان صاحب شخصية سوية، فأحبه العامة والخاصة، وأسهم الرجل بدور بارز في المجال الاجتماعي، حتى شعر الناس بمقدار خسارتهم له بعد فقده.

ثانياً: اضطلع الفخر في أخريات حياته بدور سياسي بارز في

الدولة المملوكية، فخطط للإيقاع بنائب السلطنة أرغون الناصري، ونجح بدهائه في إيغار صدر السلطان عليه، فأوحى إليه من زخرف القول غروراً، بأن نكبات سابقيه من السلاطين لم تأت إلا من نوابهم، فارتاب الناصر محمد من أرغون، وبادر بالقبض عليه، والإطاحة به من نيابة السلطنة، ، كما أقنع الفخر الناصر محمد بتعطيل هذا المنصب ما بقي حياً، لينفرد ناظر الجيش بجل صلاحيات نائب السلطنة ومهامه.

ثالثاً: نجح الفخر بدهائه في تقليص صلاحيات غريمه الوزير مغلطاي الجمالي، ثم مكر به عند السلطان الناصر محمد، متهماً إياه بعدم قدرته على النهوض بمهام منصبه، وتبديده لأموال السلطنة، مما أغضب الناصر محمد بن قلاوون، فأطاح بمغلطاي الجمالي من الوزارة، ولم يكتف الفخر بهذا فحسب، بل أشار علي السلطان بتعطيل الوزارة؛ لينفرد الفخر بمهامه الوزير وصلاحياته، كما حاز من قبل على صلاحيات نائب السلطنة، ناهيك عما كان بيده من نظر الجيش، حتى صار الفخر هو المعول عليه في السلطنة في شؤون الأموال والولاية والعزل، بل إن شئت فقل: الرجل الثاني في الدولة المملوكية بعد سلطانه الناصر محمد بن قلاوون.

ثبت المصادر والمراجع

أولاً: المصادر

ابن أيبك: أبو بكر بن عبد الله الدواداري ت بعد سنة ٧٣٦هـ /١٣٣٥م.

١ – كنز الدرر وجامع الغرر، المجلد التاسع: الدر الفاخر في سيرة الملك الناصر.

تحقيق / هانس روبرت رويمر، المعهد الألماني للآثار بالقاهرة، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، د ط ت.

ابن تغري بردي: جمال الدين أبو المحاسن يوسف ت ٨٧٤هـ /١٤٦٩م.

٢– المنهل الصافي والمستوفي بعد الوافي.

سبعة أجزاء، حققه د/محمد محمد أمين ود/سعيد عبد الفتاح عاشور، ود/نبيل محمد عبد العزيز، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٨٤– ١٩٩٠م.

٣– النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة.

١٦ جزء، قدم له وعلق عليه /محمد حسين شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤١٣هـ /١٩٩٢م.

ابن الجزري: محمد بن إبراهيم بن أبي بكر ت ٧٣٨ هـ/ ١٣٣٧م.

٤ – تاريخ حوادث الزمان وأنبائه ووفيات الأكابر والأعيان من أبنائه.

ثلاثة أجزاء، تحقيق /عمر عبد السلام تدمري،المكتبة العصرية، بيروت،ط ١، ١٤١٩ هـ/١٩٩٨م.

ابن حبيب: الحسن بن عمر بن الحسن ت٧٧٩هـ /١٣٧٧م.

٥ – تذكرة النبيه في أيام المنصور وبنيه.

الجزء الثاني، حققه ووضع حواشيه د/محمد محمد أمين، وقدم له د/سعيد عبد الفتاح عاشور، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، د ط، ١٩٨٢م.

ابن حجر: أبو الفضل أحمد بن علي ت ٨٥٢هـ /١٤٤٨م.

٦ – الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة.

ستة أجزاء، تحقيق /محمد عبد المعيد خان، مطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية، حيدر أباد، الهند، ط ٢، ١٣٩٢ هـ/١٩٧٢م.

الحنبلي: مجير الدين العليمي ت ٩٢٨هـ /١٥٢١م.

٧ – الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل.

جزءان، تحقيق/عدنان يونس نباتة، مكتبة دنديس، عمان، ط١، ١٤٢٠ هـ/١٩٩٩ م.

السحماوي: شمس الدين محمد ت ٨٦٨هـ /١٤٦٤م.

٨- الثغر الباسم في صناعة الكاتب والكاتم. المعروف باسم المقصد الرفيع المنشا الهادي لديوان الإنشاء للخالدي.

جزءان، دراسة وتحقيق د/أشرف محمد أنس، مراجعة د/حسين نصار، دار الكتب والوثائق القومية، د ط، ٢٠٠٩م /١٤٣٠هـ.

السيوطي: عبد الرحمن بن أبي بكر ت٩١١هـ /١٥٠٥م.

٩- حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة.

جزءان،تحقيق/محمد أبو الفضل إبراهيم، دار إحياء الكتب العربية، مصر، ط١، ١٣٨٧هـ/١٩٦٧م.

ابن شاهين الظاهري: غرس الدين خليل ت٨٩٣هـ/١٤٨٨م.

١٠- زبدة كشف الممالك وبيان الطرق والمسالك.

اعتنى بتصحيحه بولس راويس، باريس، دط، ١٨٩٣ م،

الصفدي: خليل بن أيبك ت٧٦٤هـ / ١٣٦٢م.

١١- أعيان العصر وأعوان النصر.

خمسة أجزاء، تحقيق الدكتور/على أبو زيد، والدكتور/نبيل أبو

عشمة، والدكتور/محمد موعد، و الدكنور/محمود سالم محمد، قدم له/مازن عبد القادر المبارك، دار الفكر المعاصر، بيروت، ط ١، ١٤١٨ هـ/١٩٩٨ م.

١٢- الوافي بالوفيات.

٢٩جزءاً، تحقيق واعتناء /أحمد الأرناؤط وتركي مصطفى .

دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، ط١ ، ١٤٢٠هـ /٢٠٠٠م.

القلقشندي: أحمد بن علي ت ٨٢١هـ /١٤١٨م.

١٣- صبح الأعشى في صناعة الإنشا.

١٥جزء، شرحه وعلق عليه وقابل نصوصه /محمد حسين شمس الدين.

دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤٠٧هـ /١٩٨٧م.

المقريزي: أحمد بن علي بن على عبد القادر ت ٨٤٥هـ /١٤٤١م.

١٤ - كتاب السلوك لمعرفة دول الملوك.

ثمانية أجزاء، تحقيق محمد عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤١٨هـ /١٩٩٧م.

١٥ - كتاب المقفى الكبير.

ثمانية أجزاء، تحقيق/محمد اليعلاوي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط١، ١٤١١هـ/١٩٩١م.

١٦ – المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار.

أربعة أجزاء، وضع حواشيه/خليل المنصور، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤١٨هـ/١٩٩٨م.

ابن منظور: محمد بن مكرم ت٧١١هـ /١٣١١م.

١٧ – لسان العرب.

١٥جزء، دار صادر، بيروت، ط٣، ١٤١٤ هـ/١٩٩٤.

النويري : شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب ت ٧٣٣ هـ /١٣٣٢م.

١٨ – نهاية الأرب في فنون الأدب.

٣٣ جزءاً، دار الكتب والوثائق المصرية، القاهرة، ط ١، ١٤٢٣هـ.

ابن الوردي: زين الدين عمر بن مظفر ت ٧٤٩هـ /١٣٤٨م.

١٩ – تاريخ ابن الوردي.

جزءان، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤١٧هـ/١٩٩٦م.

اليوسفي: موسى بن محمد بن يحيى ت ٧٥٩هـ /١٣٥٧م.

٢٠ – نزهة الناظر في سيرة الملك الناصر.

تحقيق ودراسة د/أحمد حطيط، عالم الكتب، بيروت، ط١، ١٤٠٦هـ /١٩٨٦م.

ثانياً: المراجـع

أحمد: عبد الرازق أحمد .

٢١ – البذل والبرطلة زمن سلاطين المماليك دراسة عن الرشوة.

الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، دط، ١٩٧٩م

البقلي: محمد قنديل.

٢٢– التعريف بمصطلحات صبح الأعشى.

الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، د ط، ١٩٨٣م.

الحجي: حياة ناصر.

٢٣– السلطة والمجتمع في سلطنة المماليك فترة حكم السلاطين البحرية من سنة ٦٦١هـ /١٢٦٢م إلى سنة ٧٨٤هـ/١٣٨٢م، دراسة تاريخية وثائقية في وقائع الممارسات المختلفة السلطانية والأميرية.

جامعة الكويت، ط١، ١٩٩٧م.

الخطيب: مصطفى عبد الكريم

٢٤ – معجم المصطلحات والألقاب التاريخية.

مؤسسة الرسالة، بيروت، ط ١، ١٤١٦ هـ/١٩٩٦ م.

دهمان: محمد أحمد.

٢٥– معجم الألفاظ التاريخية في العصر المملوكي.

دار الفكر، دمشق، بيروت، ط١، ١٤١٠هـ /١٩٩٠م.

رمزي: محمد.

٢٦- القاموس الجغرافي للبلاد المصرية من عهد قدماء المصريين إلى سنة ١٩٤٥م

قسمان، الهيئة المصرية العامة للكتاب، د ط، ١٩٩٤م.

سرور: محمد جمال الدين.

٢٧ - دولة بنى قلاوون في مصر

دار الفكر العربى، د ط ت.

سليم: محمود رزق (دكتور)

٢٨- عصر سلاطين المماليك ونتاجه العلمي والأدبي.

الجزء الأول، قسمان، مكتبة الآداب، القاهرة، ط٢، ١٣٨١-١٣٨٤هـ /١٩٦٢- ١٩٦٥م.

عاشور: سعيد عبد الفتاح.

٢٩- العصر المماليكي في مصر والشام.

مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، ط٣، ١٩٩٤م.

العريني: السيد الباز.

٣٠- المماليك .

دار النهضة العربية، بيروت، دط، ١٩٧٩،

عمارة: محمد.

٣١ - قاموس المصطلحات الاقتصادية في الحضارة الإسلامية.

دار الشروق، بيروت، ط ١، ١٤١٣ هـ/١٩٩٣ م.

ماجد: عبد المنعم (دكتور).

٣٢- نظم دولة سلاطين المماليك ورسومهم في مصر، دراسة شاملة للنظم السياسية.

الجزء الأول، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، ط٢، ١٩٧٩م.

** ** **